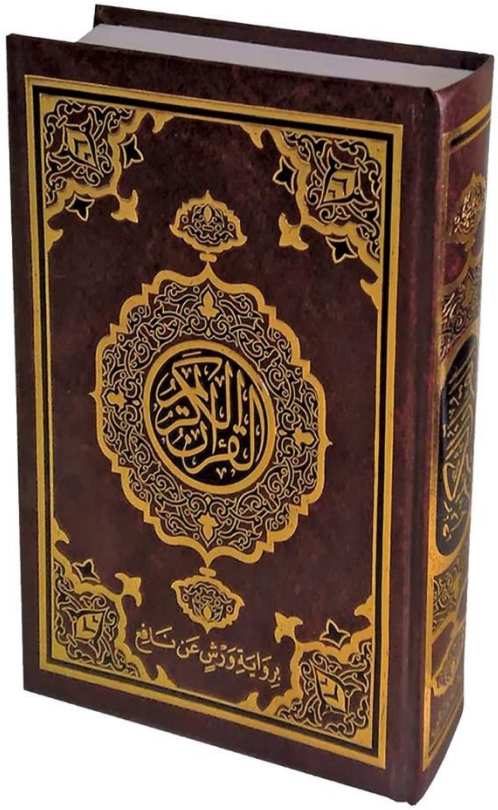

الإسلام في مواجهة العواصف

أ حمد الجوهري و إسلام نصيب

شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذا الكتاب منشور في

الإسلام
في مواجهة العواصف

أحمد الجوهري إسلام نصيب

مقدمة

يعيش الإسلام العظيم هذه الأيام محنةً كبيرةً عظيمة، والمتأمّل في بدايات هذه المحنة ثمّ في مؤشّرات امتدادها توقّعًا لتحديد وقت نهايتها تصدمه تلك المسافة الكبيرة بين هذه البداية والوقت الراهن، فضلًا عن النهاية التي لا يظهر في الأفق القريب أو البعيد مؤشرًا لقرب وقوعها.

ومثل هذه الحال تصدم القلوب بعنف فتسحق كثيرًا منها تحت وطأتها وشدّتها، ومن ثمّ وجب على كلّ مستطيع لهذه الحال أو بعضها دفعًا أن يُسارع لسقيا القلوب بماء الصبر ومعالجتها بدواء اليقين.

وقد عدت إلى الكتاب والسنّة وتاريخ الأمة أستلهمهم الرأي الصواب في الموقف الذي يتبناه القلب وتركن إليه الجوارح، فوجدت برد اليقين وكامل الطمأنينة، لقد وقفت على الشدائد والمحن التي نزلت بالإسلام طيلة تاريخه الممتد لأربعة عشر قرنًا، كيف كان حاله معها، وكيف واجهها، وإلام صار حاله بعد زوالها، وكيف أنّ شجرة الإسلام التي هبّت عليها العواصف من كلّ ناحية فأسقطت ثمارها وأذبلت ورقها وكسّرت فروعها وخلخلت أصلها حتى ظنّ كثير من المسلمين بربهم الظنون وحسبوا أنّ الإسلام العظيم يوشك أن يكون أثرًا بعد عين، فإذا المحنة تمرّ، والعاصفة تمضي، ويبقى الإسلام، فتستعيد شجرته الثبات والتجذّر، وأغصانها وفروعها التماسك، وأوراقها وثمارها الخضرة واليانعة، وتمتد ظلالها حتى تسابق النهار.

ثم ينقلب بصري إلى واقعنا الذي نعيش فيه فلا تيئسني المحن والشدائد، ولا تقنطني الرزايا والبلايا لأني موقن أنّ العاصفة ستمرّ ويبقى الإسلام، الشمس رايته، وما غطت السماء دولته، وليبلغن ملكه ما بلغ الله والنهار.

وقد شاء الله أن أسجّل هذه الرّحلة المطمئنة في هذا الكتاب، جعلته رسالة إلى القلوب المؤمنة والنفوس المسلمة الذين يؤرّقهم في الليل والنهار واقع أمتهم ويقلقون لمستقبلها.

في اثني عشر فصلًا، يشغل كل واحد منها ورقات معدودات، جاء الكتاب، وبأسلوب سهل مشوّق كتب، وقد أسعدني غاية السعادة أنّ الأديبة **"إسلام نصيب"** ذات القلم الواعد الصاعد بقوّة شاركتني تأليف الكتاب وإخراجه، ليزيد ذلك من قيمة الكتاب ويفتح له - إن شاء الله - القلوب، والله أسأل أن يضعه من قلوب القراء الكرام فوق ما نرجوا ونؤمّل، وهو الموفّق والمستعان.

(1)
يوم الحصار
شدائد البداية

"هذا الناموس..
الذي نزّل الله على موسى..
يا ليتني فيها جذعًا..
ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك".

بهذه الكلمات وضح ورقة بن نوفل للنبي صلى الله عليه وسلم حقيقة ما جرى معه في غار حراء مع أول أمر رباني يتلقاه عن طريق أمين الوحي جبريل عليه السلام، فأفهمه أنه تكملة للشريعة التي جاء بها موسى عليه السلام، ثم نبهه إلى بدء مسيرة شاقة تكون أحد عواقبها إخراجه صلى الله عليه وسلم من بلده ونبذه من قبل أهله!

استفهم النبي صلى الله عليه وسلم ورقة كأنه يريد التأكد مما سمع أو كأنه يستفسر عن هذا الاستباق للأحداث والقول في أمر مستقبلي كأنه حقيقة واقعة فقال: "أومخرجيَّ هم؟"

فأجابه: "نعم، لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عودي."

إنها السنن إذًا، فكما قوبل الرسل السابقون بالعداء والإخراج والتشويه فالحال سيتكرر لا محالة مع نبينا عليه الصلاة والسلام؛ إذ جاء بنفس الشريعة مكملًا وخاتمًا لها.

بدأت تتضح الصورة أمام النبي صلى الله عليه وسلم، وعلم أن تلك الشدة التي لقيها مع أول كلمة من الوحي كانت مؤشرًا لبداية سلسلة من الشدائد بعضها أقوى من بعض، وها هو يحكي الواقعة لما جاءه الملك لزوجه خديجة رضي الله عنها قائلا: ".. فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، قال: فغطَّني حتى بلغ الجهد مني ثم أرسلني".

ثم تكرر الأمر ثانية وثالثة حتى قال عليه الصلاة والسلام "لقد خشيت على نفسي"[1].

وبعد أن فتر الوحي مدة استرجع فيها النبي صلى الله عليه وسلم استقراره النفسي جاءه جبريل مجددًا بالوحي، آيات واضحات قصار آمرة إيّاه أن يمضي بالحق ولا يخافنّ فيه لومة لائم: "يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر".

---

[1] أخرجه البخاري (3)، ومسلم (160).

فاستنفر النبي صلى الله عليه وسلم وشّمر عن ساعد الجد وبدأ من حينها عملًا دؤوبًا متواصلًا لم يهنأ له بال حتى ترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها.

وجاءت ردة فعل المشركين كما نبّه لها من قبل، فشُتم وسفِّه واتهم بالجنون والشعوذة والسحر ولاقى من صنوف العذاب ألوانًا وهو صابر محتسب مواصل في دعوته لا يثنيه عن غايته شيء، وقد علم أن النصر لن ينال إلا بعد الشدة، ومن المحن تأتي المنح.

ثم توسع مشهد المعاناة ليشمل كل من آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم وصدق دعوته وأجابها وكل من تصدر للدفاع عنه، ولا يخفى علينا خبر تعذيب بلال وآل ياسر، وهما نموذج صغير لما حدث في تلك الفترة.

وبالرغم من كل هذه العراقيل تواصلت الدعوة وساهم الصحابة الكرام رضوان الله عليهم في نشرها وتوسعة رقعتها، وزادهم عزة إسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وهو ما زاد أيضًا من حدّة المشركين تجاههم، حتى اجتمعوا على قتل النبي صلى الله عليه وسلم والتخلص من رئيس هذه الدعوة التي سفهت آلهتهم وأذهبت هيبتهم، قال الزهري:" ثم إنّ المشركين اشتدوا على المسلمين كأشد ما كانوا حتى بلغ المسلمين الجهد، واشتد عليهم البلاء، واجتمعت قريش في مكرها أن يقتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم علانية"[2].

ولكن هيهات!

فما زالت النخوة والحميّة تجري في عروق بني هاشم مؤمنهم وكافرهم، لذلك اجتمعوا مع بني المطلب بن عبد مناف بقيادة أبي طالب واتفقوا على حماية النبي صلى الله عله وسلم ومنع قريش عنه،، ومن هنا ثارت ثائرة قريش وبلغت الشدّة الذّروة، وقد كانت بينهم مبادلات ومصالح اقتصادية واجتماعية فكان الحصار.

بداية الحصار: في العام السابع بعد البعثة اجتمع كفار قريش في خيف بني كنانة وقرروا معاقبة النبي صلى الله عليه وسلم ومناصريه من بني هاشم وبني المطلب بحصارهم في شِعب أبي طالب بمكة ومقاطعتهم بقطع كل المصالح والمبادلات معهم سواء المعيشية؛ الاقتصادية أو الاجتماعية، فلا يزوجوهم ولا يتزوجوا منهم ولا يبيعوهم شيئًا ولا يشتروا منهم كذلك، ولا يكلّموهم فضلًا عن مجالستهم، حتى يسلّموا لهم رسول الله عليه الصلاة والسلام، وكتبوا

---

[2] انظر: تاريخ الإسلام، للإمام الذهبي: (1/ 603)، تحقيق بشار معروف.

بذلك صحيفة علّقوها داخل الكعبة تأكيدًا على الالتزام بما فيها وتحذيرًا لمن تسوّل له نفسه مخالفتها .
وبالفعل بدأ تطبيق هذه البنود الجائرة، وبدأت الحال تضيق على المحاصرين يوًما بعد يوم فنقص الطعام حتى انعدم، وكذا الزاد، وكل ما تقوم به الحياة.
وهذا سعد بن معاذ يحكي لنا موقفًا تظهر من خلاله الحالة الصعبة التي وصل لها المحاصرون فيقول: "خرجت ذات يوم ونحن في الشِّعب – شعب أبي طالب الذي حوصروا فيه - لأقضي حاجتي، فسمعت قعقعة تحت البول، فإذا هي قطعة من جلد بعيرٍ يابسة، فأخذتها فغسلتها ثم أحرقتها ثم رضضتها وسففتها بالماء، فتقوّت بها ثلاث ليال"[3].
لقد كان المحاصرون إذا قدمت العير مكة يأتي أحدهم السوق ليشتري شيئًا من الطعام لعياله، فيقوم أبو لهب عدوُّ الله، فيقول: يا معشر التجار، غالوا على أصحاب محمَّد، حتى لا يدركوا مما معكم شيئًا، فقد علمتم مالي ووفاء ذمتي، فأنا ضامن أن لا خسار عليكم، فيزيدون عليهم في السلعة، قيمتها أضعافًا حتى يرجع الرجل إلى أطفاله، وهم يتضاغون من الجوع، وليس في يديه شيء يطعمهم به، ويغدو التجار على أبي لهب، فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس، حتى جهد المؤمنون، ومن معهم جوعًا وعريًا، حتى كانوا يأكلون ورق الشجر، حتى إن أحدهم يضع كما تضع الشاة[4].
يا لهذا البلاء العظيم، كم نفس أزهقت في هذه المحنة العظيمة، وكم صغير بلا ذنب قضى؟
ويا لهذا الصبر الذي منّ الله به على رسوله وعلى المؤمنيين ليتحملوا كل هذا العذاب لمدة قاربت الثلاث سنوات، فضربوا بذلك أروع مثال يحتذى به في الثبات والصبر ونصرة الحق!
وعلى الرغم من هذه المقاطعة الظالمة والمؤلمة، وما أصاب المسلمين من أثرها من معاناة وآلام، فإنّ الرسول صلى الله عليه وسلم لم يتوقف عن دعوته، فقد كان يخرج يتلقى من يقدم إلى مكة للحج، ويعرض عليهم الإسلام، كما كان يعرض ذلك على من يتصل به من قريش.
ولما كانت أقدار الله كلها خير سواء ظهرت لنا الحكمة منها أو لم تظهر، تمخّضت رحم هذه الشدة عن مسرّات لم يحسب لها المشركون حسابًا، فقد انتشر خبر الحصار من خلال موسم الحج وبلغ مسامع

---

[3] انظر: الروض الأنف: (2/ 127).
[4] نفس المصدر.

العرب في كامل الجزيرة العربية من حول مكة، فراحوا يتساءلون عن الأسباب والغايات، ويتهافتون لمعرفة أمر هذا النبي وحقيقة هذه الدعوة التي تحمّل من أجلها هو وأنصاره كل هذه الويلات، وتجلّى قول الله تعالى: {**ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين**} كأحسن ما يكون بعد فكّ الحصار، فقد دخل الناس في دين الله أفواجًا، وجاءت النتيجة عكس المتوقع تمامًا، وهذا فضل الله على المؤمنين وجزاء لهم على ثباتهم، فبعد العسر لا يكون إلا يسرًا.

ولما أذن الله بالفرج نزل الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم بدليل جديد على صدق نبوته ومعجزة جديدة للمشركين، علّهم يرجعون إلى أنفسهم ويتفكرون قليلًا ليعلموا أنّ مثل هذه الأخبار لا تصدر من شاعر ولا كاهن ولا مجنون، بل ولا تصدر من بشر عاقل سوي فحسب، وإنما هي وحي يوحى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم من إله قادر محيط بما يصنعون علمًا.

ويومًا ما جاء الوحي مُعلمًا النبي صلى الله عليه وسلم بفساد تلك الصحيفة الغاشمة المعلقة داخل الكعبة، بسبب أرضة سلطها الله عليها فأكلتها إلا ما كان فيها من ذكر الله عز وجل، وأخبر نبينا صلى الله عليه وسلم عمّه أبا طالب بذلك، وانطلق أبو طالب بالخبر إلى قريش وهم في غمرتهم ساهون، لا يعلمون من الأمر شيئًا، وتحدّاهم أبو طالب بصحة هذا الكلام؛ إن وجدوه واقعًا فعليهم فك هذا الحصار وإخلاء سبيلهم، وإن وجدوه كذبًا فهو من سيسلم إليهم الرسول بنفسه، ورضي الكفار بذلك يقينًا منهم باستحالة حدوث ما جاءهم به.

ولما ذهبوا إلى الكعبة وقعت عليهم الصدمة، فقد وجدوا دلائل صدق الخبر الذي بعث به رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم، فما كان منهم إلا أن استكبروا وعاندوا وتجبروا وخالفوا اتفاقهم مع أبي طالب، غير أن نفرًا منهم أثر فيهم ذلكم الموقف ونبذوا هذه الصحيفة وبنودَها، واتفقوا على نقضها وإنهاء هذا الحصار الظالم على إخوانهم، فلم يصبحوا إلا وقد تمّ الأمر وفكّ الحصار، وكان ذلك في السنة العاشرة بعد البعثة!

خرج النبي صلى الله عليه وسلم من الشعب هو وأصحابه بأجساد ضعيفة منهكة، ولكن قلوبهم قويّة صامدة ثابتة ونفوس زكاها الابتلاء، ومحصتها نار الشدة حتى ظهر لمعانها وانجلى عنها كل ما يعكّر صفوها.

فك الحصار وزال، وبطل كيد الكفار وحال، وبقي الإسلام صامدًا، بل عظمت شوكته وزادت عزّته، زالت الصحيفة وبنودها وبقي كلام الله

يتلى في أرجاء الأرض، وظلّ شأن الإسلام والمسلمين في عزّ وصعود، واندثر ذكر المشركين من قريش، وبقي ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يتردد في مجالس المؤمنين وحياتهم بل في الدنيا بأسرها، ذهب البلاء وبقي الأجر، ذهب الباطل وبقي الحق.

لقد كانت محنة عظيمة وعاصفة قويّة شديدة، أحاطت بالإسلام والمسلمين من كلّ جانب، وقد حاكها المشركون وأحلافهم بمهارة وقاموا على تنفيذها باقتدار، وكان غرضهم منها القضاء على الإسلام وأهله في هذا الشعب هنالك بين الجبلين، وكادت المحنة تسحق المسلمين وكادت شجرة الإسلام أن تذوب، تساقطت ثمارها ثمرة ثمرة، وذبلت أوراقها ورقة ورقة، وتكسرت فروعها فرعًا فرعًا، وبقي أصلها يصارع الحياة ويحاول الصمود في وجه العاصفة الشديدة، يا لرحمة الله لعجائز المسلمين يومئذ، يا لرحمته لمرضاهم، يا لرحمته للصبية، يا لرحمة الله للأطفال، يا لرحمته للرضع، يا لرحمته سبحانه باليتيم والمسكين والفقير من أولئك، من بعد ومن قبل، إنّ مجرد تصورها فقط يدمي القلب ويؤلم الفؤاد ويسحق النفس والروح، فكيف بمن عاشها واقعًا حيًّا وتألم لنفسه ثم لجميع هؤلاء!

ولئن كنا نقول: إن من منح هذه المحنة ذيوع خبرها وانتشار أمرها وتفشي السؤال عن أسبابها ودوافعها – وهذا خير بلا ريب للإسلام- فإنّ العجب لا يدعنا أن نقول: كيف سكت ذوو المروءات والشهامة والنجدة عن إغاثة هؤلاء المستغيثين ونصرة هؤلاء الضعفاء والمعوزين ونحن نقرأ في أخبار العرب ونسمع في أشعارهم أنهم كانوا يبحثون عن الفقير ليؤووه والجائع ليطعموه والعاري ليكسوه، أين كان هؤلاء؟ لماذا صمّت آذانهم وعميت عيونهم وجمدت قلوبهم عن ذلك الحدث الأليم الذي لم يستمرّ يومًا أو شهرًا أو سنة، بل استمر ثلاث سنين؟!

إنّ نظرة من حولنا في أرض الواقع تحير إلينا الجواب في أبلغ عبارة، فهاهم المسلمون في كلّ مكان تنزل بهم أمثال ذلك وأضعافه في عالم يدّعي حقوق الإنسان ويترع عن آخره بمؤسسات ومجالس وعصبات ما أنشئت إلا لإطعام الجائع وكسوة العاري وأمن الخائف – زعموا- ولا بواكي لهم، والكفر كله ملّة واحدة!

لقد بقيت هذه المحنة بدروسها محفورةً في نفس النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته؛ إذ لما مكّن الله لدينه وفتحت مكة بعد هذا الحدث بعشر سنين تقريبًا فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم النزول بخيف بني كنانة، ذلك المكان الذي تآمر منه المشركون على قتله وحصاره،

ليعلمهم أن لا باطل يدوم وإن رأيته يرتفع قليلًا فسقوطه سيكون أكبر، وأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

قال ابن حجر: "قيل: إنما اختار النبي صلى الله عليه و سلم النزول في ذلك الموضع ليتذكر ما كانوا فيه، فيشكر الله تعالى على ما أنعم به عليه من الفتح العظيم، وتمكنهم من دخول مكة ظاهرًا، على رغم أنف من سعى في إخراجه منها، ومبالغة في الصفح عن الذين أساءوا، ومقابلتهم بالمنّ والإحسان، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء"[5].

ويبقى هذا الحصار من أعظم الدروس التي يجب على الأمة الآن أن ترجع إليه وتتعلم منه وتستقي منه العبر والعظات، لتواجه عدوّها الذي تسلط عليها فسلبها الثروات والخيرات، وأفقر البلاد والعباد واستنزف الجهود.

فهاهي الأيام تدور مجددًا ويجد المسلمون أنفسهم مستضعفين مغلوبين، تتداعى عليهم الأمم ويتآمر عليهم البَرّ والفاجر؛ ليشتتوا شملهم ويضعفوا شوكتهم، فلا تجد قطرًا من أقطار المسلمين إلا وعاثوا فيه فسادًا، وتدخلوا فيه بسلطتهم، فصار بذلك المسلمون تبعًا لهم يتذللون ويظهرون لهم الولاء، مبتغين عندهم العزة والعزة لله جميعًا، أفلا نرجع إلى هذا الدرس إذا لنتعلم أن الله ناصر دينه لا محالة غير أنه يمحّص ويصطفي من يشاء من عباده ليميز الخبيث من الطيب وأنّه ما من نصر يأتي إلا وتسبقه الشدائد والابتلاءات!

لنتعلم أن لا مساومة على الدين وإن سلب منّا ما تقوم به الحياة من طعام وماء وغيرهما، فنحن أحياء لعبادة الله ولا معنى لحياتنا إن نحن تخلينا عن هذه الغاية.

لنتعلم الصبر والثبات وعدم استعجال النصر وإن طال البلاء، وكلما سولت لنا أنفسنا التراجع والتخاذل فلنتذكر حديثًا حدّث به النبي صلى الله عليه وسلم صحبه وهم في مثل ما نلقى من العذاب بل أشد فقال: "لَقَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ لَيُمْشَطُ بِمِشَاطِ الحَدِيدِ، مَا دُونَ عِظَامِهِ مِنْ لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُوضَعُ المِنْشَارُ عَلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَيْنِ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَلَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، مَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ"[6].

لنتيقن أن الله كما سخر من قبل صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلّم لينشروا معه دينه ويثبتوا دعائمه فإنه سيسخر له أيضًا في هذا الزمان

---

[5] فتح الباري، لابن حجر: (8/ 15).

[6] أخرجه البخاري (3416).

من يرفعون رايته ويعلون كلمته، فإما أن نصدق الله ونلتحق بركبهم أو فلنتجرع مرارة الخذلان أبدًا يوم لا تنفع نفس حسرة ولا ندامة.
نسأل الله أن يستعملنا في خدمة هذا الدين ولا يستبدلنا، وأن يجعلنا على ثغر من ثغوره مجتهدين غير مفرطين، وبالله التوفيق.

****

مضى الإسلام بعد هذه العاصفة قويًّا، شامخة شجرته، ضاربة بجذورها في الأعماق، قد تجددت فروعها، وامتدت في السماء وأورقت، وأثمرت فأثقلت، نعم يعاني الشدائد العظيمة والأهوال الجسيمة لكنه يتنفّس ويطعم ويشرب ويعيش بعض الحريّة، تلك الحريّة التي انتزعها أتباعه باصطبارهم وثباتهم وأيضًا بازديادهم وتوسعهم مساحات جديدة في عالم الأجساد والأرواح، وكانت المحن تتوالى عليهم الفينة بعد الفينة حتى أتت عاصفة قويّة شديدة، لها وقع كبير وأثر خطير، وخطر شديد على الإسلام وأهله؛ إذ كادت تهلك حصاد كلّ هذه السنين الماضية وتذهب بجهودها وثمارها، وذلك ما تقفنا على أحداثه الصفحات التالية:

(2)

محاولة وأد الإسلام في مكة ومنة الله تعالى بالهجرة.

مكة عقمٌ وأذًى: كانت مكة تتفنّن كلّ يومٍ في إيذاء النبيّ والمؤمنين به، ويبلغ أهلها في ذلك منهم غاية لا تتصوّر؛ إذ تعرّضوا للنبي صلى الله عليه وسلم بأنواع الأذى، فحاولوا وطأ رأسه أثناء السجود وقصد آخرون تهشيم رأسه بحجر كبير أثناء ذلك، وقام غيرهم بإلقاء فرث جَزور ودمها وسَلاها، فوضعوه بين كتفيه وهو ساجد، وأثاروا إعلامهم الخبيث ضدّ شخصه يقول: إنه مجنون، أو ساحر، أو كاهن، وهذا أبو لهب كان يتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأسواق والمجامع، ومواسم الحج ويكذّبه!

ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلّم ما لاقاه من أذى قريش قبل أن ينال الأذى أحدًا من أتباعه فقال: «لقد أخفت في الله عز وجل وما يخاف أحد، ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد، ولقد أتت عليّ ثلاثون من بين يوم وليلة وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال»[7].

وكان نصيب المؤمنين بالنبي صلى الله عليه وسلّم مثل ذلك وأشدّ؛ إذ لم يكن لهم من المنعة في أقوامهم مثل الذي كان له، فهذا أبو بكر - رضي الله عنه -، حُثي على رأسه التراب، وضرب في المسجد الحرام بالنعال، حتى ما يعرف وجهه من أنفه, وحُمل إلى بيته في ثوبه، وهو ما بين الحياة والموت[8].

وهذا بلال بن أبي رباح كان أمية بن خلف يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ثم يأمر بالصخرة العظيمة على صدره ثم يقول: لا يزال على ذلك حتى يموت أو يكفر بمحمّد، فيقول وهو في ذلك: أحد أحد[9].

وهؤلاء ياسر وزوجه سمية وابناهما عمار وعبد الله، قد غضب عليهم مواليهم بنو مخزوم غضبًا شديدًا صبوا عليهم العذاب صبًّا، كانوا يخرجونهم إذا حميت الظهيرة فيعذبونهم برمضاء مكة[10] ويقلبونهم

---

[7] أخرجه الترمذي (4/ 645)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (5001).
[8] التمكين للأمة الإسلامية، محمد السيد (ص243).
[9] رواه أبو نعيم في الحلية (148/1)، من حديث ابن إسحاق.
[10] السيرة النبوية، لابن هشام: (2/ 68).

ظهرًا لبطن[11], وقد وجاء أبو جهل إلى سمية فقال لها: ما آمنت بمحمد إلا لأنك عشقته لجماله، فأغلظت له القول, فطعنها بالحربة في ملمس العفة فقتلها، فهي أول شهيدة في الإسلام رضي الله عنها[12].

ومات ياسر تحت العذاب، وعاش عمار وعبد الله بعد أهلهما زمنًا يكابدان من صنوف العذاب ألوانًا[13].

وغير هؤلاء من الصحابة الكرام كثير كالزبير وسعد ومصعب وخباب وابن مسعود وعثمان بن مظعون وخالد بن سعيد وغيرهم كثير كانت قريش تتفنّن في إيذائهم[14].

ولقد سعى المسلمون للتحصّن ضدّ إيذائهم بطرق كثيرة، من هذه الطرق:

الدخول في حمى بعض الوجهاء؛ كما فعل عثمان بن مظعون حين دخل في جوار الوليد بن المغيرة، وكما فعل أبو بكر الصدّيق حين دخل في جوار ابْنِ الدَّغِنَةِ، وكما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلّم حين دخل في جوار عمّه أبي طالب منذ بداية الدعوة الجهريّة إلى وفاة أبي طالب في العام العاشر من البعثة، ثم دخل في جوار المطعم بن عديّ بعد عودته من رحلة الطائف.

لكنّ أمر الجوار لم يكن ميسورًا لجميع المسلمين، فبقي أنّ عمومهم وهم ضعفاؤهم باقين في إيذاء المشركين الذي يصبّ عليهم بالليل والنّهار، فلم تكن حيلة الجوار هذه مخرجًا من أزمة المسلمين العامّة بقدر ما كانت حلًّا مؤقتًا لمواقف عابرة.

ومن الطرق التي كفلت للمسلمين بعض الحصانة من إيذاء المشركين: إسلام بعض الشخصيّات الهامّة صاحبة الوجاهة في مكة، كعمر بن الخطاب، وحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنهما، وقد عمل المشركون لهذين الرجلين حسابًا كبيرًا، لما كان فيهما من الجلد والقوة في أمر الله، فأعزّ الله بهما الإسلام، وقد أدرك المشركون ذلك منذ الوهلة الأولى حتى قال صهيب وابن عباس: "لما أسلم عمر قال المشركون: انتصف القوم منا"[15]، وقد أصابتهم من أجل ذلك كآبة لم يصبهم قطّ مثلها[16].

---

[11] بهجة المحافل، للعامري: (1/ 92).

[12] انظر: محنة المسلمين في العهد المكي، د.سليمان السويكت: (ص99).

[13] انظر: محنة المسلمين في العهد المكي: (ص100).

[14] انظر أخبارهم في السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، الدكتور علي محمد الصلابي: (ص145-162).

[15] أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (354/6)، وابن سعد في الطبقات (269/3).

[16] انظر فتح الباري، لابن حجر: (392/7).

ويؤكّد عبد الله بن مسعود ذلك بقوله: "ما زلنا أعزّة منذ أسلم عمر"[17]، وروى ابن أبي شيبة والطبراني من طريق القاسم بن عبد الرحمن قال: قال عبد الله بن مسعود: "كان إسلام عمر عزًّا، وهجرته نصرًا، وإمارته رحمة"[18].

لكنّ تلك الحصانة كذلك لم تحل دون وقوع الأذى على المسلمين من مشركي مكة، فقد كانوا يومئذ كثير وما كان لرجلين أن يضما تحت جناحيهما هذا العدد الكبير ويحمونهم، ولئن تكنوا من ذلك بالنسبة لبعض الأحرار فما كان لهم من تمكن على الأرقاء الذين كان مالكوهم يؤذونهم ويعذّبونهم، وحتى بالنسبة للأحر فإن الأحوال قد اختلفت مع مرور الوقت وتسارع الأحداث حين أصاب السعار أهل مكة وهم يرون محاولاتهم في صد أتباع الإسلام لا تفلح فجن جنونهم وقرروا تجاوز كلّ الحدود، حتى ضرب الجميع حدّ الموت وإوذي الجميع حدّ المهانة، وكان فيمن ضرب وأوذي عمر نفسه، وكذا أبو بكر، بل والنبي صلى الله عليه وسلّم!

وكان من الطرق التي تحصّن بها النبي والمسلمون من إيذاء المشركين كذلك: الصبر، ويظهر ذلك من الآيات الكثيرة التي نزلت في هذه الفترة تأمر النبي ومن معه بالصبر وتذكرهم بأصحاب الدعوات من قبلهم كيف نابهم الأذى وكيف صبروا عليه، كما نقرؤه في سور: المزمل والإنسان، والنمل، ويوسف، وفصلت، وهود، ويونس وغيرها.

لكنّ كثيرًا من المسلمين لم يصبروا تحت وطأة التعذيب، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من أجابهم – بلسانه- إلى ما يطلبونه من الكفر، ومنهم من بالغ المشركون في أذيّته حتى فاق كلّ وصف ولم يعد بينه وبين الموت إلا ذراع!

مخرج من المأزق: كانت تلك المحاولات جميعها في التذرّع بالحصانات المختلفة ابتغاء التكيّف مع الأوضاع في مكّة عسى أن يأذن الله لقلوب أهلها أن تقبل الإسلام، ولعيونهم أن ترى آياته، ولآذانهم أن تسمع هداه، لكنّ ذلك لم يفلح مع أولئك الكافرين!

وجاء التفكير في طرق جديدة لإنقاذ الدعوة، ومنعها من الاضمحلال، فكانت طرق ثلاث على مائدة التفكير:

---

[17] أخرجه البخاري (3408).

[18] أخرجه الحاكم في المستدرك (574/3).

1) إخراج بعض المسلمين – لا سيما ضعفاؤهم - إلى بلد آمن يستطيعون الحفاظ فيه على دينهم وأنفسهم وكانت هذه فكرة الهجرة إلى الحبشة.
2) عرض فكرة الإسلام الإيمان بها ومناصرتها على القبائل التي ترد إلى مكة في موسم الحج وغيره لعل أحدها يوفّق إلى ما لم يوفّق إليه أهل مكة.
3) البحث عن وطن قريب من مكة ينتقل إليه النبي والمسلمون ويقيمون فيه دولة الإسلام التي ينتشر منها الخير ويعمّ أرض الجزيرة فالعالم.

كانت هذه هي الطرق المتاحة للخروج من المأزق أمام جمود الدعوة وموتها في مكة، فلو بقي الوضع على ما هو عليه لا شك أن الدعوة ستسحق تحت أساليب الاضطهاد التي يتبعها المشركون ضدها، وقد بدأ التنفيذ لهذه الطرق معًا، فكانت الهجرتان الأولى والثانية إلى الحبشة، وكان عرض النبي صلى الله عليه وسلّم نفسه على القبائل في موسم الحج والتجارة، وكان خروج النبي إلى الطائف للبحث عن موطن للدعوة تنتقل إليه.

أما الخروج إلى الطائف فلم يؤت ثمرته المرجوّة وحرم أهله التوفيق للمهمّة العظمى في العالم، وأما الهجرتان إلى الحبشة فقد نجحا نجاحًا باهرًا، وكذا الحديث إلى قبائل العرب قد آتى ثمارًا مبشرة ففتح الله قلوب أهل يثرب للإسلام في عام بعد عام، وبعد أن كانوا في العام الأول ستة أفراد، أصبحوا في العام الثاني اثني عشر رجلاً ثم صاروا في العام الثالث بضعًا وسبعين نفسًا من المسلمين من أهل يثرب، ولم يكن هؤلاء كلّ المسلمين بها فقد خلّف كل منهم وراءه من المسلمين عشرة أنفس أو يزيد، وما كان هؤلاء إلا بعثة ابتعثوها بين يدي طلبهم أن يشرفوا برسول الله بينهم!

ظهر الطريق إذًا ولاح المنفذ للخروج؛ هجرة ناجحة إلى الحبشة تكرر نجاحها في المرتين، وتبشر بأن طريق الفتح هجرة مثلها، وهاهي أرض تلبّي النداء، فلتكن الهجرة إذن إلى الذين يلبون النداء، فيا أيّها المستضعفون في مكة قد جاءكم من الله نور وفتح قريب فأبشروا ببشرى الله لكم، بأمان ووطن وعزّ وسيادة.

"تلك مشيئة القدر العالي هيأت للدعوة مجالها الخصب، وحماها الأمين، والسنوات العجاف التي قضاها الرسول صلى الله عليه وسلم نضالاً مستمرًا، وكفاحًا دائمًا، وتطوافًا على القبائل، والتماسًا للحليف، قد ولت إلى غير رجعة، سيكون بعد اليوم للإسلام قوته الرادعة،

وجيشه الباسل وسيلتقي الحق بالباطل ليصفي معه حساب الأيام الخوالي، والعاقبة للمتقين، وستتوالى على مكة منذ اليوم مواكب الخير وطلائع النور التي هيأها الله للخير لتتصل بالهداية وتسبح في النور، وتغترف من الخير، وترجع إلى يثرب بما وعت من خير، وبما حلمت من نور"[19].

كانت الهجرة الطريق المفتوح لإخراج نبتة الدعوة من هذا المكان الصخري الذي لا تغرس فيه ولا تنبت إلى مكان آخر قد غرست فيه وأنبتت وازدهرت وبدا ظهور ثمارها اليانعة يبشّر بمستقبل مزدهر.

ما الذي كانت تمثله الهجرة يومئذ بالنسبة للإسلام ونبيّه والمؤمنين به؟

لقد كانت الهجرة بمثابة الروح التي ستنفخ في جسد الدعوة لتحيا بعد جمود وتنطلق بعد وقوف وتنهض بعد كبوات عظيمة.

لقد كانت تمثل الماء لهذا الجسد ترويه وتحييه وتقويه، ثم تمدّه بنشاط وقوة جديدين لاستكمال الهدف من بناء الدولة وبث الدعوة وتدبّر أمر العالم وأستاذيته.

"إنّ الحكمة الأساس من الهجرة، هي أن رسالة الإسلام جاءت لتنظم شؤون الناس في شتى مجالات الحياة، فهي دستور ومنهج شامل، لا بد لتطبيقه من أمة وأرض تقام فيها أحكام الله تعالى، والمسلمون لا يمكن أن يكون لهم وجود فِعلي، إلا إذا صبغ الإسلام جميع مرافق حياتهم، وساد نظامه أرضهم، وقامت فيها أحكامه وآدابه، كما تقوم فيها شعائره، وتسود فيها عقائده.

لكن إذا تعذر على المسلمين تطبيق أحكام دينهم، وإقامة نظامه السياسي والاجتماعي والاقتصادي وآدابه الخلقية في بلدهم، وجب عليهم الانتقال إلى البلد الذي يعمل فيه بأحكام الإسلام وآدابه، تكثيراً لسواد المسلمين، وإعزازاً لأمر الدين، واستعداداً لنصره، وتأييده بالنفس والنفيس، وإذا لم يكن للمسلمين بلد تتوافر فيه هذه الشروط، وجب عليهم أن يجتمعوا في بقعة صالحة يقيمون فيها نظام الإسلام تامّاً كاملاً، ويتعاونون على حماية دعوته، واتخاذ الأسباب والوسائل لتحقيق رسالة الإسلام كما جاء بها صاحبها صلوات الله عليه، وكما فهمها منه أصحابه والتابعون لهم بإحسان[20].

ومن موافقات الله السعيدة أن يأتي التجهيز والإعداد للهجرة في ذات الوقت الذي يستعدّ فيه المشركون لإصابة الإسلام في مقتل، لقد كانوا

---

[19] انظر: أضواء على الهجرة، توفيق محمد سبع: (ص273، 274).

[20] من إلهامات الهجرة، محب الدين الخطيب: (ص53).

يأتمرون ليقتلوا النبي صلى الله عليه وسلم، أو يسجنوه، أو ينفوه إلى بلد آخر، وقد استقرّ رأيهم الأخير على خيار القتل لأنه يمثل الراحة الأبديّة لهم من هواجسهم، وبدأوا الإعداد لتنفيذ غرضهم في يوم ودبّر الله لنبيّه الخروج من بيته مهاجرًا في نفس ذلك اليوم.

هل سمع المشركون بأمر الهجرة وبلغهم خبر الجماعة المبايعة من الأنصار؟ بالقطع لا، فإن ذلك العمل العظيم من الحوار بين النبي والأنصار جرت أحداثه في ثلاث سنوات من السريّة التامّة.

لكنّه تدبير الله الذي أنقذ نبيّه من بين أيديهم وأخرجه للهجرة ومفارقة مكة إلى وجهته الجديدة حيث المستقرّ والطمأنينة للدين والدولة.

أفرأيت إن نجح المشركون في هدفهم يومئذ فقتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلّم؟ ماذا كان مصير الإسلام؟

أفرأيت إن منعوه من الهجرة وأوثقوه فسجنوه حتى لو لم يقتلوه؟

أفرأيت إن بقي الإسلام في مكة ولم يجد منفذًا أو مخرجًا في بلدة حوله أو بعيدًا عنه؟

أفرأيت إن نجح المشركون في تعقّب النبي وأبي بكر يوم الهجرة فدلّهم الشيطان أو دلتهم عقولهم على مخبئهما في الغار فدخلوه عليهما؟

أفرأيت إن تمكن منهما سراقة بن مالك فأسرهما أو قتلهما؟

إن كلّ هذه السؤالات محض فرضيّات أفترضها على عقل القارئ الكريم وهي جائزة في حكم العقل، لكنها كانت تكون كذلك في قضاء الله لو كان ذلك الدين محض دعوة بشريّة هدي إليها محمد من تلقاء عقله أو من وحي تأملاته أو من دلالات التجارب والمعرفة بأحوال الأمم السابقة، ولم يكن الإسلام في يوم كذلك قط ولن يكون، بل هو دين الله الحقّ الذي نزّله وهو يتولّاه ويرعاه.

إذن فلن تجد قريش رسول الله أبدًا ولو كان أمامها، ولن يتمكن سراقة من رسول الله أبدًا ولو أدركهما، ولن تمنع هجرة النبي صلى الله عليه وسلم مكة كلها لو خرجت بل الدنيا كلها لو اجتمعت!

وليس ذلك لمهارة رسول الله في الإعداد والتجهيز، ولا لدقته في الترتيب والتخطيط، ولا للإتقانه الشديد في ترتيب أوضاع المهاجرين في مكة من ناحية وأوضاع مناصريه في المدينة، ما من شيء من ذلك إلا ولا بدّ منه، لكنه ليس السبب في النجاح إنما السبب في النجاح أنّ هذا الدين هو دين الله وأنه لن يضيّعه، وأن محمدًا رسول الله وأن الله ناصره، فهل يفقه المسلمون الدروس المستفادة؟

- الدين دين الله وهو ناصره بنا أو بغيرنا.

- نحن لا ننصر الإسلام بل ننصر أنفسنا حين نجعلها في الحملة لنصرة الإسلام.
- الحملة علينا والنصر من الله.

نسأل الله تعالى أن يفقّهنا في ديننا، وأن يأخذ بأيدينا إليه أخذ الكرام عليه، وأن يتقبلنا له مناصرين، وأن لا يستبدل بنا قومًا آخرين، آمين!

***

مضت تلك المحنة العصيبة، مضت وانجلت، فقد سلم رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكر العداء وكيدهم به، افلت من محاولة القتل او الأسر هذه، وخرج سليمًا معافىً، أعظم ما كان آمنًا واطمئنانًا، وسلم دين الله من هذه المكيدة العاصفة والفتنة الجارفة، وسلم المؤمنون من هذه المحاولات القاتلة، اليوم قد انتقل الإسلام إلى أرض جديدة ووطن جديد وبيئة جديدة وواقع جديد، لكن المحن ما تزال تأتيهم والعواصف ما زالت تهبّ عليهم حتى كانت مرّة هبت خلالها عاصفة قويّة تحكي لنا نبأها هذه السطور:

(3)

يوم أحد

عقبة أخرى من العقبات التي مرّ بها الإسلام وخرج سالمًا شامخًا، ما زادته إلا عزًّا وعلوًّا، وظهر من خلالها حفظ الله لهذا الدين وتأييده ونصره، رغم توالي الفواجع واشتداد الأزمات.

يوم أحد، تلكم الغزوة العظيمة التي كشفت الغطاء عن المنافقين ووضّحت الحقائق جليّة للمسلمين ووضعتهم في محن جديدة لم يخرج الصادقون منها إلا بمنح جليلة زادت ثباتهم ورعرعت شجرة الإيمان في قلوبهم، وفي السطور التالية شذرات مما حل بالمسلمين يومها ثم النتائج والآثار التي ترتبت عليها:

كما جرت محاولات من قبل أهل مكة لمنع هجرة المسلمين للمدينة، كذلك جرت محاولات عسكرية لغزو الإسلام في المدينة وإبادة أهلها ومن ثم حصلت غزوة بدر التي نصر الله فيها القلة المؤمنة من اهل المدينة على الكثرة المتكاثرة من أهل مكة، لقد كانت هزيمة المشركين هزيمة على أيادي المسلمين في غزوة بدر نكراء، هزيمة أودت بحياة صناديدهم وأشرافهم وكسرت شوكتهم وبلغت بهم مبلغًا كبيرًا من الأسى والحزن، ولك أن تتخيل غيظ المشركين وحقدهم!

لذلك فإن حب الانتقام والأخذ بالثأر هيّجهم ودفع بهم إلى الاستعداد لمعركة جديدة يسترجعون بها هيبتهم ويشفون بها صدورهم من المسلمين، فانصرف الرؤساء يحضون الناس على الاستعداد للحرب

ويطلبون منهم المساهمة بأموالهم لتجهيز الجيش والعدة وفيهم نزل قول الله تعالى "إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون" {الأنفال36}
واتخذوا غير وسيلة للتحريض واستنهاض مشاعر العداوة، حتى إن صفوان بن أمية اتخذ شاعرين هما أبو عُزّة ومسافع بن عبد مناف الجمحي أغراهما ليطوفا بين الناس مرددين أشعارًا تحض على القتال والانتقام.
تكاثفت الجهود وتسارعت التحضيرات، وما إن تم الحول حتى جُهز جيش المشركين بثلاثة آلاف مقاتل عززوه بالنساء زوجات القادة، ومثلهم من البعير مع مئتي فرس وسبعمائة درع، وبدؤوا من فورهم التحرك نحو المدينة واستعرّت نار الانتقام في قلوبهم تدفعهم دفعًا.
في هذه الأثناء يصل خبر هذه التحضيرات والتحركات إلى النبي صلى الله عليه وسلم عن طريق العباس بن عبد المطلب، فتشاور مع قادة المهاجرين والأنصار الرأي حول مكان المعركة، هل يخرجون للقاء العدو خارج المدينة أم ينتظرونهم حتى يدخلون عليهم فيحاصروهم بين أسوارها ويقاتلهم الرجال على أفواه الأزقة والنساء من فوق البيوت؟
استقر القرار – بعد المشاورة - على الرأي الأخير، وكان فيمن أيده عبد الله بن أبي بن سلول، ولنا فيما يأتي وقفات مع هذا المنافق وما فعله في هذه الغزوة حتى انفضح أمره وظهر خبثه الذي يخفيه؛ إذ بعد اتخاذ هذا القرار -مقاتلة العدو من داخل المدينة- ألحّ جماعة من الصحابة على النبي صلى الله عليه وسلم أن يخرج بهم للقاء العدو حيث معسكرهم؛ لئلا يظنوا أنهم جبنوا عن لقائهم أو مترددين في الدفاع عن نبيهم وأنفسهم!
وبعد أخذ ورد غير النبي صلى الله عليه وسلم رأيه ووافق على الخروج للقتال خارج المدينة، ولم يكن هذا موافقًا لرغبة المنافق "عبد الله بن أبي" ليتمكن من التباعد عن القتال دون أن يعلم بذلك أحد"[21]

بدأت إذا التحضيرات في صف المسلمين أيضًا، وأعدوا العدة لصدّ الهجوم والتمكن من الدفاع عن نبيهم وعن أنفسهم وعن المدينة التي صارت حصنهم، ومما شحن معنوياتهم وزاد همتهم رفعة، الرؤيا التي قصها عليهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال:" إني قد رأيت والله خيرًا، رأيت بقرًا يذبح، ورأيت في ذباب سيفي ثلمًا، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة"، ثم أولها بأن البقر نفر من أصحابه

[21] انظر: الرحيق المختوم، المباركفوري: (ص292).

يقتلون، وأن الثلمة في سيفه رجل يصاب من أهل بيته، وأما الدرع فهي المدينة[22].

كما أنه صلى الله عليه وسلم بالغ في حثهم، ورغبهم في الشهادة والجنة بعد ما صلى بهم الجمعة، وبعد صلاة العصر ذهب النبي صلى الله عليه وسلم مع أبي بكر وعمر فتجهز وتعمم وتدرع بدرعين وتسلح بسيفه وخرج على الناس قائدًا لا يبغي غير إعلاء دين ربه ودحر الكافرين، وحتى لما حاول الصحابة أن يردوه عن قرار الخروج بعد أن رأوا أنهم استكرهوه على ذلك أصر على موقفه مجيبًا إياهم: "ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته - وهي الدرع - أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه"[23].

ليت حكامنا يتعظون، ويقتدون بفعل نبيهم صلى الله عليه وسلم الذي ما خاف في الله لومة لائم وما داهن في دينه ولا ساوم!

ليتهم يعلمون أن كل تلك الدعاوى للصلح والاتفاق والتفاوض مع العدو إن لم تكن في مقامها فما هي إلا فرص جديدة لاستعبادهم وتذليلهم، ليتهم يرجعون إلى ما اعتزّ به سول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته من الجهاد وطلب إحدى الحسنيين إما الشهادة أو النصر!

ها هو جيش المشركين الآن يعسكر في عينين قريبًا من جبل أحد، وها هو جيش المسلمين معروض أمام النبي صلى الله عليه وسلم ألف مقاتل، منهم المدرعون ومنهم الفرسان قسمهم إلى ثلاث كتائب بخبرة عسكرية رائعة آتاه الله إياها على أمّيته، وقد رفض يومها أن يستعين بكتيبة من يهود الخزرج بعد تأكّده من عدم دخولهم الإسلام، رغم حسن تسلحهم وقلة عدد جيشه مقارنة بالمشركين، تأكيدًا منه صلى الله عليه وسلم على أن التوحيد هو القضية الكبرى التي يدافع عنها ولا تنازل فيها حتى في أحلك المواقف، وخرج بعد ذلك في جيشه متجهًا نحو أحد ولم يبلغوه حتى جنّ عليهم الليل فعسكروا هناك بمقربة من العدو في انتظار يوم الحسم.

انكشاف المنافقين:

جاء الفجر مبشرًا بالتقاء الفئتين وبدء المعركة، وهاهنا تحصل أولى الرجّات لجيش المسلمين ويأبى النفاق إلا أن يظهر على أهله في ذاك الموقف الدقيق حيث معلوم أن في تلك اللحظات تكون الإثارة في أوجها والأعصاب على أشدّها، فقد تمرد عبد الله بن أبي بن سلول

---

[22] أخرجه أحمد (14373)، والدارمي (2159)، وهو على شرط مسلم، وانظر: سيرة ابن هشام: (61/2).

[23] أخرجه أحمد (14829)، والدارمي (2159) وغيرهما، وقال حسين سليم أسد في تحقيق سنن الدارمي (2/ 173): إسناده صحيح على شرط مسلم، وهو هو الحديث السابق.

وانسحب من الجيش وسحب معه ثلاثمائة من أتباعه مدعيًا أن انسحابه ذاك نتيجة لعدم عمل النبي صلى الله برأيه في البقاء داخل المدينة،"ولا شك أن سبب هذا الانعزال لم يكن هو ما أبداه، وإلا لم يكن لسيره مع الجيش النبوي إلى هذا المكان معنى، بل لو كان هذا هو السبب لانعزل عن الجيش منذ بداية سيره، إنما كان هدفه الرئيس من هذا التمرد - في ذلك الظرف الدقيق - أن يحدث البلبلة والاضطراب في جيش المسلمين على مرأى ومسمع من عدوهم، حتى ينحاز عامة الجيش عن النبي صلى الله عليه وسلم وتنهار معنويات من بقي معه، بينما يتشجع العدو، وتعلو همته لرؤية هذا المنظر فيكون ذلك أسرع إلى القضاء على النبي صلى الله عله وسلم وأصحابه المخلصين، ويصحو بعد ذلك الجو لعودة الرئاسة إلى هذا المنافق وأصحابه"[24].

هكذا هو فعل المنافقين في كل زمان ومكان يسعون إلى نخر القوى من الداخل مظهرين الولاء والطاعة ويخفون في أنفسهم البغض والحقد والعداوة للإسلام وأهله، وصدق من قال: إن خطر المنافقين على المسلمين أشد من خطر الكفار؛ لأن هؤلاء يحاربون جهرة ويعلنون ما في صدورهم فيمكنك التحصن منهم ومجابهتهم والاستعداد لرد كيدهم، أما الأولون فهم يظهرون القرب والمودة وقلوبهم تفيض غيظًا ونقمة ولا تعرف حقيقة مخططاتهم وكيدهم إلا إذا أظهرها الله لك، كما فعل عز وجل في هذا الموقف والله محيط بما يعملون.

كانت هذه البلبلة كفيلة بتداعي قوة المسلمين، وقد هم بعضهم باتباع الفئة المنسحبة، قال الله تعالى في ذلك: "إذ همَّت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون"{آل عمران122}

وبذلك يتمكن منهم عدوهم ويُقتل رسول الله وأصحابه وتكون نهاية هذه الدعوة المباركة وتذهب آثار هذا الدين القيم هباء منثورًا، ولكن الله سلم دينه وحفظه ونصره وأظهره، وثبت نبيه وصحبه الكرام وربط على قلوبهم للصمود في هذا الموقف العصيب مع علمهم بقلتهم أمام جيش العدو من قبل انسحاب المنافقين، فما بالك وقد انسحب قرابة الثلث؟

ومن الأمثلة على اتزان الصحابة حيال هذا الموقف وبيان شدة ثباتهم وصبرهم، ما فعله عبد الله بن حرام رضي الله عنه، فقد تبع المنافقين وهو يوبخهم ويستنكر عليهم التولي ويحضهم على الرجوع غير أنهم أعرضوا وتمادوا في انسحابهم فدعا عليهم قائلا: "أبعدكم الله، أعداء الله، فسيغني الله عنكم".

---

[24] الرحيق المختوم: (ص295).

هي والله كلمة في قمة الحكمة منه، "فسيغني الله عنكم"، بكم أو بدونكم، وبأسباب أو من غيرها، ربنا عز وجل قادر على حفظ هذا الدين الحق وإعلائه رغمًا عن أنوفكم.

أعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ترتيب الجيش وواصل معهم المسير مبتغين الوصول إلى معسكر الكفار من طريق مختصرة غير مباشرة، وقد تعرض لهم فيها منافق جديد وهو مربع بن قيظي الضرير، وحاول منعهم وهو يحثو التراب في وجوههم فما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن أمر بتجاوزه دون قتله قائلًا: "لا تقتلوه فهذا أعمى القلب أعمى البصر"[25].

وهنا لفتة طيبة نشير إليها: في الطريق نحو النصر لا تلتفت لكل ناعق ينعق ولا تهتم بكل مشير يريد لفت نظرك وإشغالك وإزاغتك عن الطريق، ركز كل تفكيرك على الهدف وسخر كل جهودك لتحقيقه دون إسراف جزء منها على المجادلة والمناقشة والخوض في معارك جانبية عقيمة ليس من شأنها إلا إضعافك وتشتيتك.. فانتبه رعاك الله !

وصل النبي صلى الله عليه وسلم مع جيشه حيث المكان المناسب، فعسكر مستقبلًا المدينة ومن ورائه أحد ومن أمامه العدو، وبدأ بشرح الخطة العسكرية لجيشه فجعل قسمًا من الجيش على اليمين بقيادة المنذر بن عمرو، وجعل قسمًا آخر على اليسار بقيادة الزبير بن العوام، وجعل في المقدمة ثلة من الشجعان للتصدي للهجوم، ثم قام بحكمته و حنكته ببعث فئة من أمهر الرماة بقيادة عبد الله بن جبير بن النعمان الأنصاري إلى جبل من وراء الجيش، هو الثغرة الوحيدة التي يستطيع العدو النفاذ منها إلى الجيش إذا ما أهملت، لذلك شدد رسول الله عليهم أيما تشديد و أكد أيما تأكيد بعدم ترك مكانهم مهما رأوا من نتائج الحرب سواء نصرًا أو هزيمة وها هو يخاطب القائد عبد الله بن جبير قائلًا: "انضح الخيل عنا بالنبل، لا يأتون من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك"[26]، وفي رواية أخرى أنه صلى الله عليه وسلم قال: "إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم ووطئناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم"[27].

"لقد كانت خطة حكيمة دقيقة جدًا، تتجلى فيها عبقرية قيادة النبي صلى الله عليه وسلم العسكرية وأنه لا يمكن لأي قائد مهما تقدمت

---

[25] انظر: سيرة ابن هشام: (65/2، 66)، وزاد المعاد، ابن القيم: (3/ 174).

[26] انظر: سيرة ابن هشام: (65/2، 66).

[27] أخرجه البخاري (2874).

كفاءته أن يضع خطة أدق وأحكم من هذه، فقد احتل أفضل موضع من ميدان المعركة، مع أنه نزل فيه بعد العدو.." [28].

وهذا من تدبير الله لدينه ومن الأسباب التي ساهمت في رفع رايته وبلوغ أمره مشارق الأرض ومغاربها.

بدء المعركة: لما تراءت الفئتان، خرج طلحة بن أبي طلحة حامل لواء المشركين يدعو للمبارزة، وقد كان معروفًا بقوته وشجاعته، ولكن ليثًا من الصحابة فاقه في ذلك إنه الزبير بن العوام رضوان الله عليه، فوثب عليه وثبة ألقاه بها عن بعيره وذبحه بسيفه فكبر المسلمون واندلعت المعركة كأشد ما تكون وحمي وطيسها، وقد أبدى فيها الصحابة من البسالة والشجاعة والقوة ما إن سطر لم تكفه المجلدات العظام، فترى سعد بن أبي وقاص وثابت بن أبي الأقلح يرميان السهام لا تخطئ مقاتل العدو، وترى الزبير ينقض على حاملي اللواء فلا يدعهم حتى تفارقهم الحياة، وهذا حنظلة – غسّيل الملائكة - الذي انخلع من حضن عروسه ملبيًا نداء الجهاد غير متردد، وترى أبا دجانة بعصابته الحمراء - عصابة الموت - آخذًا بسيف رسول الله يدك به جيش الكافرين دكًّا، ومما يذكر عنه - ولا قدرة لنا على تجاوزه - أن أبا دجانة وهو مواصل في تغلغله داخل صفوف العدو خلص إلى قائد رآه يخمش الناس خمشًا شديدًا فلما حمل عليه السيف ولول، فإذا هي امرأة فرفع عنها السيف إكرامًا لسيف رسول الله عليه الصلاة والسلام أن يضرب به امرأة.

في هذه المواقف تظهر آثار هذا الدين العظيم على النفوس، وتظهر التربية الجليلة والتزكية العظيمة التي لا يحقق الداخل فيه مراتب الكمال حتى يتحلى بها ويجعلها معيارًا لحياته وسلوكياته، فكيف بعد هذا يفترى على الإسلام أنه دين دموية ودين همجية، أو يقال إنه اضطهد المرأة وقيد حريتها.

لكل مدع لذلك أقول: فلتراجع السير والمحن ولتغص في تفاصيل السيرة ومواقفها الصغيرة والكبيرة واحكم بعين الإنصاف قبل عين العقل.

كان النصر واضحًا قريبًا للمسلمين قربهم من عدوهم الذي بدأ في الفشل والتراجع وبدأت الرّدّات من جهته تتقلص، كما أنّ صفوف جيشهم تفرقت وبدأت بالتلاشي، وزاد الأمر شدة عليهم حين سقط لواؤهم بعد مقتل جميع من وكّل لهم ذلك من بني عبد الدار.

---

[28] انظر: الرحيق المختوم: (ص298).

ولكن سنن الله ليس لها تبديل ولا تحويل، فلا نصر يخلو من المنغصات والعثرات إذا اختلت بعض أسبابه وتأخرت عن العمل، وقد كانت أول هذه العثرات مقتل أسد الله حمزة بن عبد المطلب بحربة أرسلها الوحشي إنتقامًا لسيده جبير بن مطعم من قتل عمه طعيمة بن عدي يوم بدر وأغراه بالعتق مقابل ذلك، وقد كان لمقتله رضوان الله عليه وقعًا كبيرًا في نفوس الصحابة رضوان الله عليهم لمكانته عند رسول الله وفي الجيش، ولكنهم سرعان ما تداركوا الأمر واستثاروا هممهم لمواصلة القتال، فإن حمزة شهيد عند الله وكلهم يسعى لنيل هذه الدرجة، فلا يليق الحزن بمثل هذا المقام.

ثم كانت العثرة الثانية، وهي أشد وأقسى، ووقعها قلب موازن المعركة رأسًا على عقب:

لما رأى الرماة - الذين عينهم رسول الله عليه الصلاة والسلام على الجبل من وراء الجيش - أن الكفة رجحت لصالح المسلمين، وأن الكافرين قد فروا وتشتت شملهم، والمسلمون من ورائهم لا يدعون لهم أملًا في الحياة، وبدأ البعض ينشغل بجمع ما ترك من الغنائم، نسوا تحذير رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم، وغلب عليهم حب الدنيا وزينتها، فانسلخوا من أسلحتهم وأماكنهم ونزلوا يطلبون حظهم من الغنيمة، ورغم تذكير قائدهم عبد الله بن جبير بوصية رسول الله لهم، إلا أنهم لم يطيعوه في ذلك وواصلوا السير نحو ما عزموا عليه، ولم يبق في المكان إلا القائد وتسعة أفراد معه، ومن هنا كان البلاء.

لم يفت خالد بن الوليد، وهو مشرك يومئذ، ما حصل على الجبل من أمر الرماة، فاستغل ذلك مسرعًا والتف مع كتيبته خلف الجيش ليلقى بقية الرماة مرابطين، غير أن بسالتهم لم تكن لتبلغ مبلغًا كبيرًا أمام كتيبة تفوقهم عددًا وعتادًا، فقد أبادوهم وخلا لهم الثغر وهجموا منه على جيش المسلمين من الخلف.

لما بدأت صيحات العدو ترتفع وشاهد الفارون منهم ما حصل، عاد لهم الأمل وبدؤوا في التشكل من جديد والاجتماع وأسرعت عمرة بنت علقمة الفارسية برفع لواء المشركين الساقط على الأرض فزادهم ذلك حماسًا والتفوا حوله وعادوا للقتال.

وهنا في دقة هذا الموقف وشدته، تظهر بسالة وشجاعة المعلم القائد الأكبر، نبي الله عليه الصلاة والسلام، فقد رفع صوته بالنداء ليعلم الصحابة مكانه ويلتفوا حوله، وفي ذلك مخاطرة كبرى؛ إذ أنه إذ ذاك أقرب للمشركين وبمجرد سماعهم له اتجهوا نحوه طالبين قتله بلا هوادة، والمسلمون حينها في فرقة من أمرهم بسبب الفاجعة التي نزلت

عليهم ولم يحسبوا لها حسبانًا، فمنهم من فر حتى بلغ المدينة ومنهم من ذهب للجبل يحتمي به ومنهم من عاد للقتال متجهًا صوب رسول الله صلى الله عليه وسلم لحمايته والذود عنه، إلا أنّ هذه الفئة وقعت عليهم الصاعقة بسماع مناد صاح بأن محمدًا قد قتل فكانت الضربة هذه المرة ثقيلة قاصمة.

عثرة جديدة تنبئ هذه المرة بتأزم الأحداث غاية التأزم وانسداد مفارج النور حتى يعم الظلام، مقتل رسول الله، القائد، القدوة، المحفز، معلي كلمة الحق والداعي لهذا الدين.

كان هذا الخبر كافيًا ليهدم حماس المسلمين ويستحوذ عليهم اليأس والإحباط، فترك أغلبهم سلاحه وجلس مستسلمًا مستكينًا لا يلوي على شيء ولا يبغي قتالًا بعد النبي صلى الله عليه وسلم، فهل ستكون هذه نهاية الرحلة مع نبينا، وهل سينتهي بذلك نزول خبر السماء إلى الأرض، ويرجع بعده الإسلام إلى العدم وينتصر بذلك الكفر وأهله؟

لا والله، لا يرضى الله بذلك أبدًا، وللإسلام رب يحميه ويعليه وينجيه، وهو الذي سخر له أمثال أنس بن النضر وسعد بن معاذ وثابت بن الدحداح الذين راحوا يستنهظون الهمم ويذكرون الناس بالشهادة وأن نهاية الطريق ليست ههنا إنما اللقاء مع نبيهم في الجنان، وأن قتالهم هذا في سبيل الله فلئن مات نبي الله فالله حي لا يموت، وقد حققوا بذلك مطمعهم فعاد المسلمون إلى رشدهم وثابوا إلى صوابهم ورجعوا إلى القتال، فجازاهم الله على ذلك أن علموا بأن الرسول عليه الصلاة والسلام لا يزال حيًّا مواصلًا لقتاله فاستعادوا الأمل في النصر من جديد.

ولنا أن نتخيل، كما فرضنا من قبل، لو صح مقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وتواصلت حال المسلمين على ما ذكرنا بعده هل كان الكفار سيتركون أحدًا بعده حيًّا ليواصل مسيرته في الدعوة؟

وإن تركوهم فهل كانوا سيجرؤون على المجاهرة من جديد بدعوتهم والصمود كما صمدوا أول مرة والرسول بين ظهرانيهم؟

واضحة هي الأجوبة دون ذكرها، وهي ما تأكد في كل خطوة للإسلام من البعثة إلى يومنا هذا أن الأمر ليس متعلقًا بشخص معين وإن كان ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالدين دين الله وهو مدبر أمره، فلا زال يعلو وينتشر حتى عم البقاع ولن يترك على الأرض بيت مدر ولا وبر حتى يدخله.

وفي آخر مشهد من مشاهد هذه الغزوة المباركة- التي ظاهرها الشدة وباطنها منح ومسرات وأجر عظيم- يطغى الحب والتضحية في سبيل

المحبوب في مواقف منقطعة النظير من بطولات الصحابة لفداء النبي صلى الله عليه وسلم وحمايته، وقد تصدر هذه البطولات طلحة رضي الله عنه حتى قال فيه عليه الصلاة والسلام: "أوجب طلحة" - أي الجنة - ثم أبو دجانة الذي ترّس النبي صلى الله عليه سلم بظهره والسهام تغرس فيه فما تحرك ولا توجع، وأبو طلحة وهو يقي النبي صلى الله عليه سلم بترسه فإذا أخرج النبي رأسه قال أبو طلحة: "بأبي أنت وأمي لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك"، وقتادة بن النعمان الذي وقعت عينه فردها عليه رسول الله، وعبد الرحمن بن عوف الذي أصابه العرج من كثرة الجراح ومصعب بن عمير الذي ما زال حاملًا اللواء بيمناه فقطعت فحمله بيسراه فقطعت فانكب عليه بصدره حتى قتل وهو حريص على رفعه، وغيرهم الكثير والكثير مما يطول ذكره ولا تسعه هذه الصفحات.

ثم تمكن النبي صلى الله عليه وسلم من خلال مساعدتهم إلى الانسحاب إلى الجبل ثم الرجوع إلى المدينة تحت حراسة مشددة بعد أن شجت رأسه الكريمة وكسرت رباعيته فجعل يقول وهو يسلت الدم عنه: "كيف يفلح قوم شجوا نبيهم، وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله؟" فأنزل الله عز وجل: "ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون"[29]، فأمره أن يرد الأمر لخالقه عز وجل فإن شاء تاب عليهم وإن شاء عذبهم.

وانتهى ذلك اليوم بقيام الرسول عليه الصلاة والسلام مع الصحابة بين يدي ربه يحمده ويثني عليه ويدعوه لما يعلمه من أنه صاحب الفضل عليهم وهو المنعم بالخلاص من هذه المعركة وخروج الإسلام صامدًا راسخًا في قلوب المؤمنين.

لكن الأمر لم ينته عند حدود الهزيمة في أحد، فللقصة بقية وهي بقيّة جديرة بالتأمل، فهل لنا أن نسأل عن أولئك المشركين المنتصرين في أحد هل بقوا هناك؟ أم لحقوا بالمسلمين المنهزمين في المدينة؟ وماذا كان من خبر المسلمين يومئذ؟

بعد أن أعاد الرسول صلى الله عليه وسلم قراءة الأحداث التي وقعت والنتائج التي آلت إليها استنتج أن الكافرين لا بد وحتمًا سيرجعون إلى قتالهم مرة أخرى ما داموا لم يحققوا أيًّا من مطامعهم التي قامت عليها معركة أحد، لذلك فإنه سارع بالنداء في الناس وجمعهم وحثهم لمواصلة مطادرة الكفار ليمنعوهم من الرجوع، وقد استجاب الصحابة لذلك على ما أصابهم من تعب وجراح وساروا معه يوم الأحد الثامن من شوال حتى بلغوا "حمراء الأسد" فعسكروا هناك في انتظار ما يستجد من الأحداث.

---

[29] أخرجه البخاري (3842)، ومسلم (4746).

وقد وقع بالفعل ما كان توقعه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد طالب أغلبية جيش الكفار بالرجوع إلى المدينة والقتال من جديد للقضاء على النبي صلى الله عليه وسلم وبذلك يدحرون دعوته ويتحقق لهم ما يريدون، وما منعهم من ذلك إلا كلام معبد بن أبي معبد الخزاعي -الذي كان قد أسلم قبل مجيئه إلى أبي سفيان، وذهب إلى النبي صلى الله عه وسلم فآزره ونصح له، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يفعل شيئًا يربك به جيش الكفر و تقل به همتهم ويخبو حماسهم- فقد قال لهم: إن محمدًا قد خرج يطلبكم في أصحابه، يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، يتحرقون عليكم تحرقًا، قد اجتمع معه من تخلف عنه في يومكم، وندموا على ما ضيعوا، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط، فقال له أبو سفيان: ويحك ما تقول؟ قال: والله ما أرى أن ترتحل حتى أرى نواصي الخيل، قال: فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلن بقيتهم، فنهاه معبد عن ذلك.

وقع كلام معبد في قلوب القوم، ففشلوا وذهبت ريحهم وانهارت قواهم وعزموا مواصلة طريقهم دون الرجوع إلى المدينة علهم ينجون من جيش المسلمين، وهو ما يدل على جبنهم حينها، حتى أنهم عمدوا إلى وفد من عبد القيس يريد المدينة فأغراهم بنصيب من الزبيب على أن يرهبوا جيش المسلمين ويبلغوهم أن الكافرين قد أجمعوا الكرة عليهم، وقد كان ذلك، فقالوا: {إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم} ولكن هذا لم يزد المسلمين إلا إيمانًا وثباتًا، {وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ° فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم"}

ها هي منة الله وفضله تتجلى مرة أخرى في حفظ الإسلام ومنع المشركين من المساس به أو النيل منه، وكان من الممكن أن يرجع إليهم الكفار حقًّا فلا يذروا منهم فردًا بسبب ما كانوا عليه من حالة حرجة بعد معركة أحد، ولكنه ألقى في قلوبهم الرعب فأحجموا عن فعل ذلك، "ويؤكد لنا تعجيل أبي سفيان في الانسحاب والانصراف، أنه كان يخاف على جيشه المعرة والهزيمة لو جرت صفحة ثالثة من القتال"[30]، وعلى عكسهم فقد صمد المسلمون ينتظرون بحمراء الأسد ثلاثة أيام بعد قدومهم متوكلين على الله طالبين النصر والعون منه، وقد ثبتهم الله تعالى بقوله: {ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنّهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون}، ثم عادوا إلى المدينة بعد أن كفاهم الله القتال.

هكذا انتهت غزوة حمراء الأسد التي كانت جزءًا و تتمة لغزوة أحد، وكان لهذه الأخيرة آثار وحكم عظيمة نستخلصها من كلام ابن القيم في كتابه زاد المعاد وهي:

- فضح المنافقين وكشفهم وإبعادهم عن منازل الصادقين الذين يطلبون النصر أو الشهادة
- سوء عاقبة المعصية وشؤم ارتكاب النهي.

---

[30] انظر: الرحيق المختوم: (ص339).

- تأخير النصر هضمًا للنفس وكسرًا لشماختها، فلما ابتلي المؤمنون صبروا وجزع المنافقون.

- لا يخلوا النصر من الابتلاء ثم تكون العاقبة للمؤمنين، فلو أنهم انتصروا دائمًا دون تمحيص لدخل فيهم من ليس منهم.

ونختم الكلام بعبارات رقراقة من كلام الأستاذ سيد قطب لخص فيها الدروس والعبر المستفادة من هذه الواقعة فيقول: "إن معركة أحد لم تكن مركة الميدان وحده، إنما كانت معركة كذلك في الضمير، كانت معركة ميدانها أوسع الميادين، لأن ميدان القتال فيها لم يكن إلا جانبًا واحدًا من ميدانها الهائل الذي دارت فيه.. ميدان النفس البشرية وتصوراتها ومشاعرها وأطماعها وشهواتها ودوافعها وكوابحها على العموم.

وكان النصر أولًا وكانت الهزيمة ثانيًا، وكان الانتصار الكبير فيها بعد النصر والهزيمة، انتصار المعرفة الواضحة والرؤية المستنيرة للحقائق التي جلاّها القرآن، واستقرار المشاعر على هذه الحقائق، واستقرار اليقين، وتمحيص النفوس، وتمييز الصفوف، ووضوح سمات النفاق وسمات الصدق في القول والفعل وفي الشعور والسلوك، ووضوح تكاليف الإيمان وتكاليف الدعوة إليه والحركة به، ومقتضيات ذلك كله من الاستعداد بالمعرفة والاستعداد بالتجرد والاستعداد بالتنظيم و التزام الطاعة والاتباع بعد هذا كله، والتوكل على الله وحده في كل خطوة من خطوات الطريق، ورد الأمر وحده في النصر والهزيمة والموت والحياة، وفي كل أمر وفي كل اتجاه.

لقد انهزم المسلمون – مع النبي صلى الله عليه وسلم - في أحد، فكان ماذا؟ هل انهزم الإسلام؟ هل قضى نحبه؟ هل اندثر وصار أثرًا بعد عين؟ بل بقي الإسلام، بقي يباشر الإعداد ليوم جديد ينتصر فيه عوضًا ليوم هزيمته، بقي ينظر ويتأمل ويعتبر بما وقع له من الهزيمة؛ ما أسبابها؟ وما آثارها؟ ليعد العدة ويأخذ الحذر فلا يقع في مثل هذه الأسباب بعد ذلك، هذه تربية الهزيمة إذًا.

مرّت هذه العاصفة إذا بسلام، لكن اليام التي تلتها كانت حبلى بعواصف كثيرة وهي عواصف من نوع جديد، كما تخبرنا به السطور التالية:

(4)
اجتماع الأحزاب للقضاء على الإسلام في المدينة ومنّة الله تعالى بالنصر

مضى النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون إلى المدينة ينعمون بوطنهم الجديد أمنًا وسلامًا وطمأنينة، الأمر الذي لم يُرض قريشًا ومعهم المشركون في سائر أرجاء الجزيرة، فزحفوا مرة بعد مرّة للقضاء على دولة الإسلام !

ولئن كانت قريش قد خرجت في بدر وفي أحد بمحاربي مكة فلم يفلحوا في القضاء على الدولة الناشئة، فإنّ ذلك لم ييئسهم من المحاولة مرة ثالثة لكن هذه المرة كانت بمعاونة المشركين من جزيرة العرب جميعها، بل عاونهم في ذلك أيضًا اليهود في المدينة!

إنه اجتماع أشتات الكفار من كلّ اتجاه إذن للقضاء على الإسلام ودولة الإسلام وأهل الإسلام، جاءوا في كثرتهم الساحقة، فيهم المشرك والكتابيّ، الحربيّ والمعاهد، البعيد والقريب، الأميون والرساليّون، قد اجتمعت كلمتهم وتوحّد هدفهم على أن لا يذروا للإسلام بعد اليوم أرضًا ولا يتركوا من أهله نسمة حيّة!

كان ذلك في السنة الخامسة من الهجرة[31]، وقد عرفت هذه الأحداث بغزوة الأحزاب، وفي الاسم - ابتداء - خير دلالة على خطورة الأمر وعظمة هوله وشدّة وطأته على المسلمين في المدينة، الأمر الذي عبّر عنه القرآن بقوله: {إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (11) }.

لقد غلبت الظنون على بعض الأذهان أن يُغلب الإسلام، أو يُستأصل المسلمون، وأنّ ما وعد الله نبيّه من النصر لن يكون[32]، إلى آخر هذه الظنون الكاذبة التي تهجم على النفوس في وقت الأزمات والمدلهمّات يهيجها الشيطان ويوسوس بها في الصدور، تؤازره في ذلك النفس الأمارة بالسوء من ناحية وشياطين الإنس المندسين في الصفّ المسلم من جهة أخرى!

---

[31] انظر: السيرة النبوية، ابن هشام: (214/1)، وهو قول جمهور أهل السير والمغازي، انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، د. مهدي رزق الله: (ص443).

[32] انظر: جامع البيان، الطبري: (222/20).

لقد كانت دولة المسلمين وقوتهم تمثّل – حاليًا - تهديداً مستمراً واضحًا لطرق قوافل المشركين وخطراً على مكانتهم بين العرب وتشكّل – مستقبلًا - تهديدًا بزوالهم وفنائهم إلى الأبد.

وكان المشركون يفهمون ذلك، ويفهمون أيضًا أنّ فرصتهم في القضاء على الإسلام ودولته تقلّ وتتضاءل كلّ يوم أكثر وأكثر، ولهذا حرصوا على أن تكون الضربة التي يوجهونها لهم اليوم ضربة قاضية وأخيرة ومن ثم لجأوا إلى التحالف مع كل من له مصلحة في القضاء على المسلمين.

كان جيش الأحزاب يتألف من عشرة آلاف تقصد المدينة وليس فيها يومئذ إلا ثلاثة آلاف مقاتل، "فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أجمعوا له من الأمر، استشار أصحابه، وقد أشار عليه سلمان الفارسي بحفر الخندق في المنطقة الوحيدة المكشوفة أمام الغزاة، أما الجهات الأخرى فكانت كالحصن تتشابك فيها الأبنية وأشجار النخيل وتحيطها الحرات التي يصعب على الإبل والمشاة التحرك فيها[33].

ووافق الجميع على هذه الفكرة لعلمهم بكثرة الجموع القادمة لحربهم، وشرعوا في حفر الخندق الذي يمتد من أجم الشيخين طرف بن حارثة شرقاً حتى المذاذ غرباً، وكان طوله خمسة آلاف ذراع، وعرضه تسعة أذرع، وعمقه من سبعة أذرع إلى عشرة. وكان على كل عشرة من المسلمين حفر أربعين ذراعاً، والأنصار من حصن ذباب إلى جبل عبيد في الغرب.

وعمل المسلمون في الحفر على عجل، يبادرون قدوم القوم، وقد تراوحت مدة الحفر ما بين ستة أيام وأربعة وعشرين يوماً. فعند ابن عقبة استغرق قريباً من عشرين ليلة، وعند الواقدي أربعاً وعشرين ليلة، وفي الروضة للنووي خمسة عشر يوماً، وعند ابن سعد ستة أيام.

وكان طعامهم القليل من الشعير يخلط بدهن متغير الرائحة لقدمه، ويطبخ فيأكلونه على الرغم من بشاعة طعمه في الحلق ورائحته المنتنة، وذلك لشدة جوعهم. حتى هذا لا يجدونه أحياناً فيأكلون التمر، وأحياناً لا يجدون هذا ولا ذاك لمدة ثلاثة أيام متتالية، إلى الحد الذي يعصب فيه النبي صلى الله عليه وسلم بطنه بحجر من شدة الجوع.

وشارك جميع المسلمين في الحفر، لا فرق بين غني وفقير ومولى وأمير، وأسوتهم في ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم الذي حمل التراب حتى اغبر بطنه ووارى التراب جلده، وكان الصحابة

---

[33] انظر: مغازي الواقدي: (2/ 444), والطبقات الكبرى، ابن سعد: (2/ 66).

يستعينون به في تفتيت الصخرة التي تعترضهم ويعجزون عنها، فيفتتها لهم. ويردد معهم الأهازيج والأرجاز لتنشيطهم للعمل، فيقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا

.... ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا

.... وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الألى قد بغوا علينا

.... وإن أرادوا فتنة أبينا

وكان يمد بها صوته بآخرها[34]، ويرتجز المسلمون وهم يعملون:

نحن الذين بايعوا محمدا

... على الإسلام ما بقينا أبدا

فيجيبهم صلى الله عليه وسلم بقوله:

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة

.... فبارك في الأنصار والمهاجرة[35]

وربما يبدؤهم بقوله فيردون عليه بقولهم[36].

عددٌ قليل، وطعامٌ نادر، وإرهاقٌ قاتل، وبردٌ شديد، ثم كلل ذلك كله بتخذيل المنافقين والذين في قلوبهم مرض وكان المنافقون إلى هذا الوقت ضمن الصفّ المسلم يلقون المؤمنين فيقولون آمنّا فإذا خلوا إلى بعضهم قالوا: {مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا}.

فأراد النبي صلى الله عليه وسلّم أن يقف على الحالة المعنويّة لجنوده فجمعهم وحدثهم في أر يستطلع به ما عندهم، فبعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة زعيمي الأنصار، فاستشارهما في الصلح الذي عرضته عليه قبيلة غطفان، وهو أن يعطوا ثلث ثمار المدينة لعام كي ينصرفوا عن قتال المسلمين، ولم يبق إلا التوقيع على صحيفة الصلح، فما كان منهما رضي الله عنهما إلا أن قالا له صلى الله عليه وسلّم: "لا والله ما أعطينا الدنية من أنفسنا في الجاهلية فكيف وقد جاء الله بالإسلام"[37].

وفي رواية أنهما قالا: "يا رسول الله: أوحي من السماء فالتسليم لأمر الله، أو عن رأيك أو هواك ؟ فرأينا تبع هواك ورأيك، فإن كنت إنما

---

[34] أخرجه البخاري (4106).

[35] أخرجه مسلم (129).

[36] منقول من غزوة الأحزاب، شبكة منهاج السنّة.

[37] أخرجه البزار، انظر: كشف الأستار للهيثمي: (1704).

تريد الإبقاء علينا، فوالله لقد رأيتنا وإياهم على سواء ما ينالون منا ثمرة إلا شراء أو قِرًى"[38].

ومن أجل هذه الردود العالية التي تظهر فيها روح العز والكرامة قطع رسول الله صلى الله عليه وسلم المفاوضة مع الأعراب الذين كان يمثلهم الحارث الغطفاني، قائد بني مرة، واستعدّ لمواجهة جموع الأحزاب بعون الله ثم بجنده المؤمنين بالله ورسوله.

لم يلبث النبي والمسلمون إلا قليلًا حتى جاءهم بلاء جديد جليل ذلك أن يهود بني النضير أرادوا أن يجروا معهم إخوانهم يهود بني قريظة إلى نقض العهد والغدر بالمسلمين والوقوف مع الأحزاب. فأوفدوا حييّاً ابن أخطب للقيام بهذه المهمة. فجاء حيي إلى كعب بن أسد القرظي. وبعد حوار طويل بينهما أقنعه بنقض العهد مع المسلمين بحجة قوة الأحزاب ومقدرتهم على استئصال المسلمين، وأغراه بأن يدخل معه حصنه عندما ينصرف الأحزاب، بعد أداء مهمتهم.

وكان يومًا عصيباً من الدهر، ذلك اليوم الذي علم فيه المسلمون نقض بني قريظة ما بينهم وبين المسلمين من عهد. وتكمن خطورة ذلك في موقعهم الذي يمكنهم من تسديد ضربة غادرة للمسلمين من الخلف. فقد كانت ديارهم في العوالي، إلى الجنوب الشرقي للمدينة على وادي مهزور.

لقد أتاه الزبير بما يدل على غدرهم، ويومها قال له الرسول صلى الله عليه وسلم: "فداك أبي وأمي، إن لكل نبي حواريّاً، وحواري الزبير"[39].

لزيادة الحيطة والحذر والتأكد من مثل هذه الأمور الخطيرة، أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وعبد الله بن رواحة وخوات بن جبير، فجاءوا إلى بني قريظة وتحدثوا معهم، ووجدوهم قد نكثوا العهد ومزقوا الصحيفة التي بينهم وبين الرسول صلى الله عليه وسلم إلا بني سعية، فإنهم جاؤوا إلى المسلمين وفاء بالعهد، وعاد رسل المسلمين إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بالخبر اليقين.

وعندما شاع هذا الخبر خاف المسلمون على ذراريهم من بني قريظة، ومروا بوقت عصيب وابتلاء عظيم[40].

---

[38] أخرجه ابن سعد في الطبقات (66/2)، وانظر مجمع الزوائد (132/6)، والسيرة لابن هشام: (310/3).

[39] أخرجه البخاري (2846)، ومسلم (2415).

[40] غزوة الأحزاب، شبكة منهاج السنة.

وقد استمرّ حصار المشركين للمدينة أربعًا وعشرين يومًا بلغت فيها القلوب الحناجر كما قال الله عز وجلّ، وكانت المناوشات بين المشركين والمسلمين طيلة مدة الحصار متواصلة لا تنقطع، في محاولات من المشركين لعبور الخندق، وتراشق المسلمين معهم بالنبل، حتى إنهم شغلوا المسلمين عن أداء بعض الصلوات!

ولو استمرّت هذه الحال لأيّام أخرى فالله وحده العليم بما كان سيحدث، بل قبل ذلك لو لم يلهم الله تعالى سلمان الفارسي المشورة بأمر الخندق ما الذي كان سيجري!

لقد كانت الجموع الوافدة من الخارج وفيهم جيران المدينة مثل بني النضير وخيبر مع الجموع التي تألبت من الداخل مثل بني قريظة ألوفًا مؤلّفة أعدادها ومواقعها كافية للقضاء على جيش المسلمين في الدينة، ولقد كانت هذه الجموع حرة طليقة بخلاف المسلمين فقد كانوا محاصرين داخل المدينة، ثم كان في الداخل المسلم من مال قلبه إلى العدو المحاصر المتربص فتآمر معه وهم بنو قريظة الذين نقضوا العهد من أول يوم، وفيهم من لو دعي إلى الخيانة لأجاب من المنافقين، وفيهم من لو دعي إلى المواجهة والمناصرة لتخاذل من الذين في قلوبهم مرض، فلا يصفوا من الثلاثة آلاف يومئذ وهم جملة جيش المدينة إلا أقل من ذلك!

كما قال الله تعالى: {وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ۚ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا(13) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا (14) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (15)}.

لكن منذ متى والنصر يرتبط بالعدد، أو بالعدّة، أو بوجود قلة خائنة أو متخاذلة، بل لو لم يوجد أحد على الإطلاق لنصر الله دينه ورسوله وإن حاربه أهل الأرض جميعهم!

وهو ما وقع في هذه المعركة التي كاد الإسلام فيها – بالنظرة البشريّة المجرّدة- يقضي نحبه، ويستأصل أتباعه وجنده، وتسلب دولته وأرضه، فإن الله نصر الإسلام يومئذ برجل واحد، وببعض الهواء.

نعم لقد كفى الله المؤمنين القتال، وهزم الأحزاب بوسيلتين اثنتين:

الأولى: تسخير الله نعيم بن مسعود ليخذّل الأحزاب.

والثانية: الرياح الهوجاء الباردة.

1- دور نعيم بن مسعود:

روى ابن إسحاق والواقدي وعبدالرزاق وموسى بن عقبة أن نعيم بن مسعود الغطفاني، أتى النبي صلى الله عليه وسلم مسلما وعرض عليه أن يقوم بتنفيذ أي أمر يريده النبي صلى الله عليه وسلم فقال له: "إنما أنت رجل واحد فينا، ولكن خذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة"[41].

وقبل أن يعرف إسلام نعيم، أتى بني قريظة، فأقنعهم بعد التورط مع قريش في قتال حتى يأخذوا منهم رهائن، لكيلا يولوا الأدبار، ويتركوهم وحدهم يواجهون مصيرهم مع المسلمين بالمدينة. ثم أتى قريشًا فأخبرهم أن بني قريظة قد ندموا على ما فعلوا، وأنهم قد اتفقوا سرًّا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يختطفوا عددًا من أشراف قريش وغطفان فيسلموهم له ليقتلهم دليلا على ندمهم، وقال لهم: فإن أرسلت إليكم يهود يلتمسون منكم رهنا من رجالكم فإياكم أن تسلموهم رجلا منكم. ثم أتى غطفان وقال لهم مثل الذي قاله لقريش، وبذلك زرع بذور الشك بينهم وأخذ كل فريق يتهم الفريق الآخر بالخيانة.

2- معجزة الرياح:

هبت ريح هوجاء في ليلة مظلمة باردة، فقلبت قدور المشركين واقتلعت خيامهم وأطفأت نيرانهم ودفنت رحالهم، فما كان من أبي سفيان إلا أن ضاق بها ذرعا فنادى في الأحزاب بالرحيل. وكانت هذه الريح من جنود الله الذين أرسلهم على المشركين، وفي ذلك يقول الله تعالى: { يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها، وكان الله بما تعملون بصيرا}.

وروى مسلم بسنده عن حذيفة بن اليمان طرفا مما حدث في تلك الليلة الحاسمة، قال حذيفة: لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الأحزاب، وأخذتنا ريح شديدة وقر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {ألا رجل يأتني بخبر القوم، جعله الله معي يوم القيامة}، فسكتنا فلم يجبه منا أحد، ... {ردد ذلك ثلاثا} ثم قال: { قم يا حذيفة فأتنا بخبر القوم"، فلم أجد بدًّا إذ دعاني باسمي أن أقوم، قال: "اذهب فأتني بخبر القوم ولا تذعرهم علي".

فلما وليت من عنده جعلت كأنما أمشي في حمام، حتى أتيتهم، فرأيت أبا سفيان يصلي ظهره بالنار، فوضعت سهما في كبد القوس، فأردت أن أرميه، فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ولا تذعرهم علي"، ولو رميته لأصبته، فرجعت، وأنا أمشي في مثل الحمام. فلما

---

[41] أخرجه أبو نعيم في المستخرج (6553)، والبيهقي في دلائل النبوة: (1357).

أتيته فأخبرته بخبر القوم وفرغت، فألبسني رسول الله صلى الله عليه وسلم من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها. فلم أزل نائما حتى أصبحت فقال: قم يا نومان[42].

وزاد ابن إسحاق في روايته لهذا الخبر: {... فدخلت في القوم، والريح جنود الله تفعل بهم ما تفعل لا تقر لهم قدرا ولا إناء ولا بناء، فقام أبو سفيان، فقال: يا معشر قريش لينظر امرؤ مَن جليسه ؟ فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جانبي فقلت له: من أنت ؟ قال: فلان بن فلان، ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون ... فارتحلوا فإني مرتحل}[43].

وفي رواية الحاكم والبزار: { ... فانطلقت إلى عسكرهم فوجدت أبا سفيان يوقد النار في عصبة حوله، قد تفرق الأحزاب عنه، حتى إذا جلست فيهم فحسب أبو سفيان أنه دخل فيهم من غيرهم، قال: ليأخذ كل رجل منكم بيد جليسه، فضربت بيدي على الذي على يميني وأخذت بيده، ثم ضربت بيدي على الذي عن يساري فأخذت بيده، فلبثت هنيهة، ثم قمت فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ... قلت: يا رسول الله: تفرق الناس عن أبي سفيان فلم يبق إلا عصبة توقد النار قد صب الله عليه من البرد مثل الذي صب علينا ولكنا نرجو من الله ما لا يرجون}[44].

وختم الله هذا الامتحان الرهيب بهذه النهاية السعيدة، وجنب المسلمين شر القتال، قال تعالى معلقا على هذه الخاتمة: {وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (25)}.

وكانت هذه الخاتمة استجابة لضراعة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الله أثناء محنة الحصار: "اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم"[45].

لقد بذلت الأحزاب أقصى ما يمكنهم لاستئصال المسلمين، ولكن الله ردهم خائبين، وهذا يعني أنهم لن يستطيعوا أن يفعلوا شيئا في المستقبل، ولذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "الآن نغزوهم ولا

---

[42] أخرجه مسلم (3349).
[43] انظر: السيرة النبوية، لابن هشام: (1/ 233).
[44] أخرجه الحاكم في المستدرك (6551)، والبزار (650).
[45] أخرجه البخاري (4115).

يغزوننا، نحن نسير إليهم"[46]؛ هذا علم من أعلام النبوة، لأن الذي حدث بعد هذا هو ما ذكره الرسول صلى الله عليه وسلم[47].

خرج الإسلام من هذه المحنة منتصرًا قويًّا، وتحقق له بها عزّة ومنعة لم تكن له قبلها، فقد كان فشل هؤلاء جميعهم في الحرب عليه معناه أنه أقوى منهم جميعًا، ومعناه أيضًا أنهم لن يفكّروا في العودة إلى عملهم ذاك مرة أخرى، لقد بات الإسلام في مأمن وبقي أن يتطلّع إلى تلك الآفاق التي أعلن عنها النبي في أثناء المحنة، لينتقل إلى الخطوة الجديدة من الأرض العربيّة إلى العالميّة، ليتطلّع المؤمنون من اليوم إلى ملك فارس في أرض العراق وإلى ملك الروم في أرض الشام، ليكونوا أسياد الأرض.

لقد كانت هذه المحنة نعم المنحة.

وهكذا كانت غزوة الأحزاب درسًا للذين ييئسهم ما يقع بالمسلمين من نكبات وأنواء، وما يصيبه من ضرّ وأذى وما ينزل به من محن وشدائد، فيقعدهم ذلك عن السعي والعمل ويركبهم الغم والهم على مستقبل الإسلام، ألا فليع هؤلاء أنّ الإسلام محفوظ، وليدرسوا تاريخه في القرآن والسنّة وسيرة الرسول وأيام الله في الدول والتاريخ، وليهمهم شأنهم هم فليستوثقوا لإيمانهم بربهم ونبيهم وليتأكدوا ليقينهم في دينهم حتى لا نسمع مثل الذي قاله بعض الذين في قلوبهم مرض والمرجفون – وقد قالوا شيئًا إدًّا، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخرّ الجبال هدًّا- قالوا: أين الله؟ أليس الله يسمع ويرى؟ ألا يعلم الله ما يقع للمسلمين في الأرض؟ أليس الله قادرًا على نصرتنا؟ ألا ينصر أولياءه؟ ألا يردّ عنهم وعن دينه أعداءه؟ ما بال الله ندعوه فلا يجيب ونسأله فلا يستجيب؟

أسئلة تدلّ على خراب القلوب من الإيمان، وخلو النفوس من تعظيم الله، إنّ الله تعالى ينصر المؤمنين فليراجع هؤلاء إيمانهم حتى يكونوا أهلا لنصر الله وتأييده، وسمة المؤمنين الأدب مع الله والثقة بأن له في كلّ أمر حكمة فلا يتعجّلون ما يريدون وإن كانوا يودّون عجلته حتى يأذن الله له أن يكون، فإن أراد الله لشيء أن يكون فهو كائن.

إنّ الله ناصر دينه، بنا أو بغيرنا، فلا يكن همّ أحدنا هل سينتصر الإسلام أم لا، بل ليكن همّه: هل سينتصر الإسلام به أو لا، وليعدّ نفسه ليكون أهلا للجنديّة في جيش نصرة الإسلام.

***

[46] أخرجه البخاري (4110).

[47] غزوة الأحزاب، شبكة منهاج السنة.

مضت ست سنوات على هدوء العاصفة كانت فتحًا ونصرًا وبركة كلها، ثمّ أتت بعد هذه السنوات الست عاصفة هوجاء كانت محنة عظيمة شديدة لم يمتحن الإسلام بمثلها قبل ذلك أبدًا، وهي موضوع حديثنا القادم بمشيئة الله وأمره.

(5)
الرّدّة

قبيل وفاة النبي صلى الله عليه وسلّم انتشر الإسلام في جزيرة العرب، وعمّ أرجاءها، وتحققت له الهيمنة السياسيّة على القلب والأطراف، وبدأت هيمنته الدينيّة هي الأخرى تأخذ طريقها إلى قلوب النّاس لولا أن عاجلت المنيّة رسول الله صلى الله عليه وسلّم فإذا جموع كثيرة تنفض الإسلام عن كاهليها وتنتكس على أعقابها وتريد أن تعود سيرتها الأولى قبل الإسلام وانقلبوا على المسلمين الذين لم يجيبوهم إلى الشراكة في أمر الردة فقتلوهم وذبحوهم، وفعلوا بهم أشنع المنكرات كما فعل مسيلمة الكذاب الحنفي مع المسلمين من بني حنفية وطلحة بن خويلد الأسدي مع قومه وغيرهم!

وجموع ثانية تريد أن تؤمن بإسلام منقوص تؤدي فيه ما تريد وتمنع ما تريد على حسب هواها ورغبتها، يقولون: نؤدي الصلاة ولا نؤدي الزكاة، وبعض هؤلاء اعتبرها جزية أو ضريبة، وسمّى دفعها عارًا!

وجموع ثالثة راحت تتبع بعض المعتوهين من مدّعي النبوة الذين حسبوا أمر النبوة دعوى تدعى وجموع تتبع وأرض تحاز، وهؤلاء وهؤلاء ليسوا من الأولين ببعيد فهم يشتركون جميعًا في نهاية واحدة ألا وهي الرّدة عن الإسلام، ولم يبقَ حينها على الإسلام إلا المدينة المنورة – عاصمة الإسلام - ومكة والطائف وقرية جُواثَى بالبحرين، حتى بدا الوضع وقتها أنّ الدولة الإسلامية قد انهارت بموت مؤسِّسِها صلى الله عليه وسلّم، بل الرّسالة قد انقضت بانقضاء حياته، ووداعًا من يومئذ على الإسلام والمسلمين.

لقد جرؤ الأعراب على عاصمة الإسلام وأرسلوا رسلهم إلى خليفة المسلمين أبي بكر الصديق يملون عليه شرطهم: وهو أن لا تطالبهم الدولة المسلمة بالزكاة، فهم لن يؤدّوها لهم لأن النبي صلى الله عليه وسلّم قد مات وهو الذي كان يأخذها منهم، وهذا الشرط في مقابل أن يرفع هؤلاء أيديهم عن المدينة ولا يهاجموها مع سائر المرتدين!

قد باتت عاصمة الإسلام في خطر إذن!

من أجل ذلك كلّه سارع الصحابة رضوان الله عليهم إلى الخليفة يودّون منه أن يأخذ جميع الاحتياطات اللازمة لحماية المدينة من الغارات المتوقعة، وكان في اقتراحاتهم له:

- تأجيل بعث جيش أسامة الذي أعدّه النبي صلى الله عليه وسلّم إلى الرّوم لتأمين حدود الدولة الإسلاميّة في الشمال.

- سحب قيادة الجيش من أسامة وتولية غيره يكون أقدم منه أسنًّا وأكثر خبرة.
- قبول سفارة الأعراب، ريثما يقضى على المرتدين أولًا وفي ذلك تحييد لبعض العدو وتخفيف ضغط الأزمة بعض الشيء.

وقد استمع أبو بكر رضي الله عنه إلى مطالبهم تلك، ثم أجابهم عليها جميعًا بالرفض:

فلم يقبل أن يحبس جيشَ أسامة لأنه لن يحبس جيشًا أطلقه رسول الله، وقال: "والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو أن الطير تخطفنا، والسباع من حول المدينة، ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين، لأجهزن جيش أسامة" [48].

ولم يقبل أن يفكّ عقد لواء القيادة عن أسامة لأنه لن يفكّ عقدًا عقده رسول الله، وقال: استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمروني أن أنزعه؟"[49]، "والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم"[50].

ولم يقبل قولهم في مفاوضة الأعراب لأنه لن يقبل من الأعراب التفريق بين أركان الإسلام يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض قائلًا: "والله لأقاتلَنّ من فرَّق بين الصلاة والزكاة؛ فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدُّونه إلى رسول الله لقاتلتهم على منعه"[51]، ثم قال رضي الله عنه وأرضاه: "والله لو خالفتني شمالي لقاتلتها بيميني"[52]، وقال أيضًا: "أقاتلهم وحدي حتى تُقطع رقبتي"[53].

كانت كلمات الخليفة كاشفة بحسم عن موقفه النهائي ولا يجدي معها النقاش أو المراجعة، وكان على الجميع البدء في التفكير في النقطة الأهمّ كيف يصدّون العدوان المرتقب على المدينة؟

أنفذ الصدّيق جيشَ أسامة، فكان ذلك أوّل أسباب انفراج الأزمة؛ إذ نظرت الجموع المتربّصة بالدولة المسلمة في أمر الجيش فرجّحت أنّه لا يخرج إلا عن قوّة من المدينة، ولا يخرج في هذه الأجواء إلا وقد ترك وراءه قوّة مثله أو أكثر، والحقيقة أن المدينة كانت خاوية خالية ليس فيها إلا عدد محدود، لكنّها بركة طاعة رسول الله في العمل بأمره وتنفيذ وصيّته، جعلت المرتدّين يرتبكون فيعيدون حساباتهم وينظرون

---

[48] البداية والنهاية، ابن كثير: (424/9).
[49] تاريخ الرسل والملوك، الطبري: 46/4.
[50] البداية والنهاية (424/9).
[51] أخرجه مسلم (20).
[52] انظر: أحكام القرآن، ابن العربي: (586/1).
[53] المصدر نفسه.

في أمرهم ويتلجلجون تجاه الموقف الذي يتخذونه حيال الأمور من حولهم!

يقول ابن كثير: "فساروا لا يمرون بحي من أحياء العرب إلا أرعبوا منهم، وقالوا: ما خرج هؤلاء من قوم إلا وبهم منعة شديدة، فغابوا أربعين يومًا.. ثم آبوا سالمين غانمين، ثم رجعوا فجهزهم حينئذ مع الأحياء الذين أخرجهم لقتال المرتدة، ومانعي الزكاة"[54].

لم يلبث المرتدون في حيرتهم تلك إلا ريثما أتتهم رسائل خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلّم تتهددهم وتتوعدهم فزادتهم حيرة واضطرابًا فأربكت صفوفهم أكثر وأكثر، ثم بعث الصديق إلى الجموع الصامدة الثابتة في جهات هؤلاء المرتدين وقبائلهم يحضهم على الثبات ويبشرهم بالنصر ويدعوهم إلى اللحوق به في المدينة، وقد حصل ما أراد الصديق، فأتت الجموع تزحف إلى المدينة من كلّ مكان.

نجحت الحرب النفسيّة التي خاضها الصديق بجدارة:

ثبّت أهل المدينة بثباته وكلماته، وأرعب أعداءه، وجمع شتات مؤيديه في العاصمة فكانت منهم جموع غفيرة استطاع الصديق أن يكوّن منهم أحد عشر جيشًا يبعثهم في كلّ الجهات التي خرجت منها الردّة، وقد عادت هذه الجيوش إلى المدينة بالنصر في كل المواقع، ومع النصر الثبات الذي ران على الجزيرة كلها إذ لم يبقَ في الجزيرة العربية مرتدٌّ واحد، وقد استقر الحال فيها إلى الأبد فلم يعلم أن خطرًا مثله كبيرًا أو صغيرًا قد تكرر بعدها، بل اتجهت تلك الجزيرة عن بكرة أبيها لتنشر دعوتها وترفع رايتها وتوسّع أرضها في الدنيا كلها.

سبحان الله! "ما أشد التحول وأخطره، وما أسرعه كذلك! سبحان الله الذي يقلب الأحول كيفما يشاء: {**فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ**} [البروج: 16]، {**لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**} [الأنبياء: 23]، تأتي وفود العرب مذعنة منقادة مطيعة وبهذه الكثرة، حتى سمي العام التاسع (عام الوفود)، ثم تنقلب الأحوال فيخشى من أن تأتي القبائل العربية للإغارة على المدينة المنورة عاصمة الإسلام[55]، بل قد جاءت للإغارة للقضاء على -حسب زعمها الباطل- على الإسلام والمسلمين[56]، ولا غرابة في هذا فإن من سنن الله الثابتة في الأمم أن أيامها لا تبقى ثابتة على حالة بل تتغير وتتبدل، وقد أخبر بذلك الذي يقلب الأيام ويصرفها

---

[54] انظر: البداية والنهاية (424/9).

(1،2) قصة بعث أبي بكر جيش أسامة: (ص 18).

- عز وجل - بقوله: {**وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ**} [آل عمران: 140].

قال الرازي في تفسيره: والمعنى أن أيام الدنيا هي دول بين الناس لا يدوم مسارها ولا مضارها، فيوم يحصل فيه سرور له والغم لعدوه، ويوم آخر بالعكس من ذلك ولا يبقى شيء من أحوالها ولا يستقر أثر من آثارها [57].

وجاءت صيغة المضارعة نُداولُها للدلالة على تجدد سنة مداولة الأيام من الأمم واستمرارها، وفي هذا قال القاضي أبو السعود: وصيغة المضارع الدالة على التجدد والاستمرار للإيذان بأن تلك المداولة سنة مسلوكة بين الأمم قاطبة سابقتها ولاحقتها [58] وقد قيل: الأيام دول والحرب سجال [59].

وقال الشاعر:

فيوم علينا ويوم لنا ... ويوم نُساء ويوم نُسَرُّ

فالصديق يعلِّم الأمة إذا نزلت بها الشدة وألمت بها المصيبة أن تصبر، فالنصر مع الصبر، وأن لا تيأس ولا تقنط من رحمة الله: {**إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ**} [الأعراف: 56]، وليتذكر المسلم دائمًا أن الشدة مهما عظمت والمصيبة مهما اشتدت وكبرت فإن من سنن الله الثابتة: {**فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**} [الشرح: 5، 6]، وإن المسلم لأمره عجيب في هذه الدنيا، فقد بين رسول الله ذلك في قوله: «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»[61].

لقد ألهم الله تعالى الصديق رضي الله عنه بعبقريّته تلك المؤمنة أن يثبت ويثبت المؤمنين للخروج بالإسلام من هذا المأزق الذي كاد أن يودي بالإسلام وأهله، فماذا لو لم ينفذ الصديق جيش أسامة؟ الجواب: سيحدث مثلما حدث في أحد، معصية فهزيمة.

وماذا لو لم يثبت الله تعالى الصديق؟ الجواب: لما رأيت ثابتًا بعده.

وماذا لو مال الصديق إلى قبول الهدنة مع الأعراب؟ الجواب: لطمع فيهم كلّ من بأطرافها وأيقنوا بأنهم ليسوا على شيء.

([57]) تفسير الرازي: (15/9)، تفسير القرطبي: (218/4).

([58]) تفسير أبي السعود: (89/2)، روح المعاني للألوسي: (68/4).

([59]) روح المعاني، الألوسي: (68/4).

([6]) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: (218/4).

([61]) أخرجه مسلم: (2295/4)، سيرة الصديق، للصلابي: (129، 130).

وماذا لو لم يلهم الله الصديق بهذه الخطة العبقريّة التي هزمت الأعداء قبل أن تصلهم السيوف والحراب؟ الجواب معلوم.
لقد أنقذ الله الإسلام بالصديق – وهو رجل واحد - من خطر أحدق بالإسلام، لم يحدق به مثله من قبل، ولم يتكرّر مثله من جنسه بعد، ولله درّ أبي هريرة إذ يعبّر عن دور الصديق في الخروج من هذا الموقف المتأزّم فيقول: "والله الذي لا إله إلا هو، لولا أن أبا بكر استُخْلِفَ ما عُبِد اللهُ"[62].
ألم أقل لك – عزيزي القارئ – إن الله ناصر دينه وغالب على أمره؟
فثق بالله وارض به، إنّ الذي يكشف البلوى هو الله، والله ما للإسلام من أحد غير الله فحسبه في كلٍّ له الله.

***

مضى الإسلام بعد هذه العاصفة الهوجاء يشقّ الطريق إلى العالميّة، ويفتح القلوب في مشارق الأرض ومغاربها، ودانت له أرض وشعب أعظم امبراطوريتين شهدهما تاريخ ذلك الزمان، الفرس والروم، ومضت عشرون سنة أو يزيد قليلًا توّجت مسيرة الإسلام خلالها بالانتصارات والفتوحات.
ثم وقعت عاصفة شديدة عظيمة، جديدة من نوعها تمامًا، كادت أن تهلك الإسلام وأهله، وصار لها أثرٌ عظيم في مسيرته عبر التاريخ إلى يومنا هذا.
ويركّز حديثنا القادم على تفصيل القول في هذه العاصفة ومعرفتها.

(6)

[62] البداية والنهاية (424/9).

الفتنة بين الصحابة

الوحدة هي أعظم أسلحة المسلمين - بعد الإيمان بالله تعالى - في النصر والدفاع على سواء، ولم يعرف زمانٌ قط انتصر فيه على المسلمين أعداؤهم إلا وهم متشرذمون، بل ما جرؤ هؤلاء يومًا على المسلمين إلا وهم أشتات متفرّقون، أما وهم وحدة واحدة وجماعة متماسكة وصفٌ مرصوصٌ فلا، لهذا كان تفرّق الصفّ الإسلامي أعظم الأخطار التي واجهت الإسلام في كل زمان ومكان، ومن ثم كانت دعوة الإسلام إلى الوحدة ونبذ الفرقة في كثير من آيات القرآن وأحاديث السنّة وأحداث السيرة، ولنقرأ معًا هذا الخبر يغنينا في هذا الباب: أخرج ابن إسحاق عن زيد بن أسلم قال: مرّ شاس بن قيس وكان شيخاً عظيمَ الكفر، شديدَ الضغن على المسلمين، شديدَ الحسدِ لهم على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم، يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من أُلْفَتِهِمْ وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية فقال: قد اجتمع بنو قيلة بهذه البلاد، واللهِ مالنا معهم إذا اجتمعوا بها من قرار، فأمر فتى شاباً معه، فقال: اعْمِدْ إليهم فاجلس معهم، ثم ذكِّرْهم يوم بُعَاث وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، وكان يوم بعاث يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج، ففعل، فتكلم القوم عند ذلك، وتنازعوا وتفاخروا، حتى توثبَ رجلان من الحَيَّيْنِ فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إنْ شئتُم واللهِ رَدَدْناها الآن جذعة، وغضب الفريقان جميعاً وقالوا: قد فعلنا، السلاحَ السّلاحَ، موعدكم الحَرَّة، فخرجوا إليها، وانضمَّتْ الأوسُ بعضُها إلى بعض، والخزرجُ بعضُها إلى بعض على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية، فَبَلَغَ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فَخرجَ إليهم فِيمَنْ معه من المهاجرين من أصحابه، حتى جاءهم، فقال: يا معشرَ المسلمين، اللهَ اللهَ، أَبِدَعْوى الجاهلية وأنا بين أَظْهِركم، أَبَعْدَ إذ هداكم اللهُ إلى الإسلام، وأكرمَكم به، وقطعَ به عنكم أمرَ الجاهلية، وَاسْتَنْقَذَكُم به مِنَ الكفر، وَأَلَّفَ به بينكم، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً، فعرفَ القومُ أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم لهم، فألقوا السلاح، وبَكَوْا، وعانق الرجالُ بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين، قد أطفأ اللهُ عنهم كيدَ عدوهم، وأنزل الله في شأن شاس بن قيس وما صنع قولَه عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ *

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ أخوانا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ *)[63].

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يجهض كلّ دعوة من شأنها إثارة العصبيّة وبذر الفرقة بين المسلمين، لما يعلم لها صلى الله عليه وسلّم من نتائج وخيمة ومفاسد عظيمة، وظلّ المسلمون كذلك يتقون وقوع هذا الشرّ بينهم، ويغيشون في اجتماع ووحدة وتماسك طيلة حياة النبي صلى الله عليه وسلّم، فزمان خليفتيه أبي بكر ثم عمر، وكلما بدت نار فرقة سارع المصلحون المخلصون لوأدها في شرارتها الأولى.

فلما كانت وفاة أمير المؤمنين عمر وخلافة أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنهما بدأت الفتن تطلّ برأسها، فإن عمر كان الباب الذي يحول بين الأمة وبين الفتن فلما مات انكسر الباب وانهمرت الفتن على المسلمين انهيارًا، وكان أعظم هذه الفتن الاقتتال بين الصحابة!

سرعان ما جرت الأحداث بعهد ذي النورين عثمان رضي الله عنه ومارت الفتن حتى انتهت بقتله شهيدًا – كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلّم[64]- على أيدي نفر من شراذم وشذاذ الآفاق، أتوا من مصر والعراق وغيرهما، ادّعوا عليه – ظلمًا وبهتانًا- دعاوى استحلّوا بها قتله، ومضى عثمان إلى ربّه راضيًا مرضيًّا صابرًا مصابرًا بعدما أقسم على الصحابة ألا يسفكوا لأجله دمًا ولا يقتلوا إنسانًا وبعدما رفض أن يسير إلى بلد من البلاد تكون له بها منعة أو يبعث إليه ولاته بجند تتوفر له بسببهم حماية.

بعد مقتل عثمان رضي الله عنه مظلومًا[65] ولي عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه الخلافة بمبايعة من الصحابة وجميع أهل المدينة - على كره منه للخلافة ورفض منه للبيعة – وبعد مرور خمسة أيام على

---

(63) انظر: السيرة النبوية لابن هشام: (2 / 204 – 206).

(64) انظر البخاري (3674 و3305) ومسلم (2403).

(65) روى الترمذيّ (3708) وأحمد في مسنده (115/2) وحسّنه الألباني عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنةً فقال: "يقتل فيها هذا المقنع يومئذٍ مظلوماً فنظرنا فإذا هو عثمان بن عفان".

مقتل الخليفة الشهيد، فقبل رضي الله عنه البيعة حسمًا لمادّة الخلاف ولئلا تترك الأمور لأولئك الغوغاء [66].

كانت البيعة لعليّ رضي الله عنه في عام 36 ه وبعد بيعته بأيّام جاءه طلحة والزبير رضي الله عنهما وطالباه بأخذ الثأر من قتلة عثمان وكان هذان الصحابيان الجليلان أول من بايع عليًّا، رضي الله عنهم أجمعين، فماذا كان جواب عليّ على طلبهما؟ اعتذر علي رضي الله عنه إليهما بأنّ قتلة عثمان كثرة فمن الفطنة تأجيل الأمر بعض الوقت حتى يتم له التمكن في الحكم وجمع شتات الناس وكشف هؤلاء المجرمين وتعريتهم من المنحازين إليهم والمتعاطفين معهم، لقد كان هذا العذر نفسه هو الذي منع عثمان رضي الله عنه من قتالهم لئلا تكون فتنة تسفك فيها دماء المسلمين، خلاف صغير في وجهات النظر، لكن بدأ منه الخلاف الكبير الذي أسفر عن فرقة المسلمين إلى فريقين، فريق مع عليّ رضي الله عنه وفريق يخالفه، وأسفر كذلك عن حربين عظيمين حدثت فيهما مقتلة عظيمة وسفكت فيهما دماء كثيرة، هما حرب الجمل وحرب صِفّين.

لقد غضب طلحة والزبير ومعهما أم المؤمنين عائشة – رضي الله عن الجميع- من قول عليّ بتأجيل القصاص ورفضوا اجتهاده في ذلك، وزاد الأمر سوءًا رفض معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه – البيعة لعليّ حتى يأخذ بحقّ عثمان ممن قتلوه، وكان معاوية عامل عثمان على الشام وأولى النّاس بدمه من قومه- فتأخرت بذلك بيعة الشام بأسرها عن عليّ لأجل هذا السبب!

تأزمت الأمور أكثر وأكثر بخروج طلحة والزبير إلى مكة لمقابلة عائشة رضي الله عنها وكانت في الحج، ثم خرجوا جميعًا مع عبد الله بن عامر والي البصرة الذي ذكر لهم أنّ له أعوانًا في البصرة يؤيدونه للمطالبة بدم عثمان والوقوف في وجه قتلته، فخرجوا معه جميعًا إلى البصرة وكان غرضهم من ذلك جمع الأعوان والنصرة للمطالبة بدم عثمان رضي الله عنه، ومما قاله الزبير في ذلك: "خرجنا لنستنهض الناس ليدركوا دم عثمان لأَنْ لا يبطل فإن في إبطاله توهينًا لسلطان الله بينا أبدا فإذا لم يفطم الناس على أمثاله لم يبقى إمام إلا وقتله هذا الصنف من الناس"[67]، وهذا يؤكّد على أنهم ما قصدوا إلا الخير، وإن أخطأوا الطريق إليه، فذلك كله موكول إلى تقدير وتنفيذ

---

[66] انظر العواصم من القواصم، ابن العربي: (ص146)، وصحيح مسلم (2401)، ومصنف ابن أبي شيبة (443/7)، وتاريخ ابن عساكر (535/42).

[67] انظر: تاريخ الرسل والملوك: (29/3)

الإمام الذي بايعه الناس، وكذلك أخطأ معاوية رضي الله عنه في اجتهاد بتأخير البيعة، إذ ما كان له أن يحبس البيعة عمن بايعه المسلمون، بل يدخل فيما دخل فيه الناس، ولقد كان دخوله في البيعة – لو فعل - مصدر القوة الذي كان ينتظره عليّ رضي الله عنه، وحسم لمادة الشرّ الكبير الذي وقع بعدها، لكن وقع ما قدّره الله وكان أمر الله قدرًا مقدورًا.

لما سمع عليّ رضي الله عنه بخروج أولئك الصحابة إلى البصرة خرج هو الآخر إليها يريد ردّهم عما أرادوا من خلاف قوله ولئلا يجمعوا الناس ويحزّبوهم فتكون فتنة، ولما وصل إلى البصرة بعث القعقاع بن عمرو رسولًا إلى أم المؤمنين ومعها طلحة والزبير، فلما أتاهم قال لأمه عائشة: أي أماه، ما أقدمك هذا البلد؟ فقالت: أي بني الإصلاح بين الناس، فقال لها: هلا ناديت طلحة والزبير. فدعتهما فأقبلا، فقال لهما القعقاع: إني سألت أمنا عائشة ما الذي أقدمها إلى البلاد؟ فقالت: إني جئت للإصلاح بين الناس، فقالا: ونحن والله ما جئنا إلا لذلك، فقال لهما القعقاع: أخبراني وما وجه هذا الإصلاح، ما السبيل إليه، وعلى أي شيء يكون؟ فوالله إن عرفناه لنصطلحن، فقال طلحة والزبير: أن يقتل علي قتلة عثمان، فإن ترك علي هذا الأمر كان علي بذلك تاركًا للقرآن.

فقال القعقاع: يا طلحة يا زبير لقد تحمستما وقتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة فغضب لهؤلاء الذين قتلوا ستة آلاف، فإن تركتموهم وقعتم فيما تزعمون أن عليًّا وقع فيه، وإن قاتلتموهم وقعت مفسدة هي أعظم من الأولى، وقال أيضًا: إنما أخّر عليّ قتل قتلة عثمان إلى أن يتمكن منهم، فإن الكلمة الآن في جميع الأمصار مختلفة!

فقالت عائشة: فماذا تقول أنت يا قعقاع؟ قال: يا أماه، إن هذا الأمر الذي وقع دواؤه التسكين، فآثروا العافية وكونوا مفاتيح خير كما كنتم ولا تعرضونا للبلاء، فهذا الأمر الذي وقع أمر عظيم، فقالوا جميعًا: أصبت وأحسنت، فارجع إلى عليّ إن كان لعلي مثل رأيك صلح الأمر.

وهنا يكون كل شيء على ما يرام ويكون علي قبل الصلح وعائشة وطلحة والزبير قبلوا الصلح وكلهم في غاية الفرح والسعادة برجوع الأمور إلى نصابها.

ورجع القعقاع إلى عليّ فأخبره ذلك، وأشرف القوم على الصلح، كره ذلك من كرهه، ورضيه من رضيه [68].

---

[68] تاريخ الرسل والملوك: (29/3)، بواسطة الفتنة بين الصحابة، لمحمد حسان: (220).

فما الذي حدث؟

بات قتلة عثمان – وكانوا قد خرجوا ينظرون إلى ماذا ستنتهي تلك المفاوضات- فلما علموا باستقرار الفريقين على الصلح وعلموا أنها القاضية عليه، وأن القوم سيفرغون لقتلهم، ائتمروا وتشاوروا ثم نظرو وفكروا ودبّروا، فقتلوا كيف دبروا، فقسموا أنفسهم فريقين ودخل كل فريق منهم إلى معسكر من المعسكرين في جنح الظلام، حتى إذا طلع الصباح هاج الفريقان يخيلون للناس أن المعسكر المقابل هجم عليهم، وانطلت الحيلة على المعسكرين فقاموا إلى الحرب، كلّ منهم يقول: قد غدر بنا الآخرون! [69].

ووقعت على إثر ذلك مقتلة عظيمة، وطارت أشلاء وجرت أنهار الدماء، وكان فيمن قتل يومئذ، طلحة والزبير رضي الله عنهما.

لقد كانت – موقعة الجمل هذه - فتنة بين إخوة متحابين ظلوا إلى أن مضوا إلى ربّهم يضمرون الخير ويقولونه ويفعلونه، لكن وقع ما وقع عليهم من تدبير وحياكة من غيرهم، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا.

ثم كانت موقعة صفِّين بين جيش الشام بقيادة معاوية وجيش العراق بقيادة عليّ وقد وقع القتال كذلك على كره منهما، قال شيخ الإسلام: "وأكثر الذين كانوا يختارون القتال من الطائفتين لم يكونوا يطيعون لا عليًّا ولا معاوية، وكان علي ومعاوية رضي الله عنهما أطلب لكف الدماء من أكثر المقتتلين، لكن غُلبا فيما وقع، والفتنة إذا ثارت عجز الحكماء عن إطفاء نارها، وكان في العسكرين مثل الأشتر النخعي، وهاشم بن عتبة المرقال، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وأبي الأعور السلمي، ونحوهم من المحرضين على القتال قوم ينتصرون لعثمان غاية الانتصار، وقوم ينفرون عنه، وقوم ينتصرون لعلي، وقوم ينفرون عنه ثم قتال أصحاب معاوية معه لم يكن لخصوص معاوية، بل كان لأسباب أخرى. وقتال الفتنة مثل قتال الجاهلية لا تنضبط مقاصد أهله واعتقاداتهم، كما قال الزهري: " وقعت الفتنة وأصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - متوافرون، فأجمعوا أن كل دم أو مال أو فرج أصيب بتأويل القرآن فإنه هدر؛ أنزلوهم منزلة الجاهلية.. وهذا كله سواء كان ذنبًا أو اجتهادًا، مخطئًا أو مصيبًا، فإن مغفرة الله ورحمته تتناول ذلك بالتوبة والحسنات الماحية والمصائب المكفرة وغير ذلك"[70].

---

[69] انظر تاريخ الرسل والملوك: (39/3)، والبداية والنهاية (420/7).

[70] منهاج السنّة النّبويّة، لابن تيميّة: (4/ 469).

وما من شكّ في أنّ عليًّا وأصحابه كانوا أدنى الطائفتين إلى الحقّ، من أصحاب معاوية، وأصحاب معاوية كانوا باغين عليهم [71].

ومع هذا وقع القتال ولا حول ولا قوة إلا بالله، واحتدم بقوّة، وأسفر عن قتلى كثر من الفريقين، وكانت الهزيمة آخرًا في جيش معاوية ولأجل هذا سارعوا برفع المصاحف على أسنّة الرماح يطالبون بالتحاكم إلى كتاب الله، الأمر الذي لم يعره عليّ اهتمامًا في البداية وحقّ له؛ إذ أدرك أنها خدعة للانقلاب على نتيجة المعركة، وأما كتاب الله فما خرج عليّ إلا لنصرته وإنفاذ حكمه!

أبى فريقٌ كبير من جيش عليّ إلا الاستجابة لطلب جيش الشام فتركوا القتال، ووجد عليّ نفسه مرغمًا على التحكيم، فاختار الفطن اللبيب أبا موسى الأشعري رضي الله عنه ليمثله، كما اختار معاوية رضي الله عنه الصحابي الجليل عمرو بن العاص ليمثل وجهة نظر أهل الشام.

ما الذي حدث في هذا التحكيم؟ قال الناس في ذلك ما قالوا، وما كان الصواب في شيء مما قالوا، إلا ما ساقه الدارقطنيّ بسند صحيح عن التابعي الثقة حضين بن المنذر أنه سأل عمرو بن العاص عن ذلك فقال عمرو - يحكي ما وقع بينه وبين أبي موسى -: "قلت لأبي موسى: يا أبا موسى، ما ترى في هذا الأمر؟ فقال أبو موسى: أرى أنه في النفر الذين توفّي رسول الله – صلى الله عليه وسلّم وهو راض عنهم، فقال عمرو: فأين تجعلني أنا ومعاوية؟ فقال أبو موسى: "إن يستعن بكما ففيكما المعونة، وإن يستغن عنكما فطالما استغنى أمر الله عنكما"[72].

ثم اتفق الحكمان – عمرو وأبو موسى- على تأجيل القضاء في الأمر سبعة أشهر وكان الوقت في شهر صفر فتنتهي في رمضان، لكن قدّر الله أن يموت عليّ رضي الله عنه خلال هذه المدّة![73].

لقد كان خروج الصحابة طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنهم إلى مكة ثم قصدهم المدينة بمن معهم من الناس، ثم عدولهم عن المدينة إلى البصرة للازدياد من الأعداد لأن من معهم معنا لن يقدر على أولئك الغوغاء في المدينة، اجتهادًا اجتهدوه رضي الله عنهم وأخطأوا فيه، كتب الله لهم أجر اجتهادهم وعفا عنهم بمنّه وفضله لسابقتهم، فقد سبقت لهم من الله الحسنى والوعد بالمغفرة.

---

[71] انظر: البداية والنهاية (277/7).

[72] أخرجه ابن عساكر: (175/46)، وانظر: العواصم من القواصم (ص180).

[73] انظر: تاريخ الرسل والملوك: (103/3)، وتاريخ ابن عساكر: (153/65)، وطبقات ابن سعد (35/3).

وكانت رغبة الصحابي الجليل معاوية رضي الله عنه حث عليّ رضي الله عنه على التعجيل بأخذ القصاص من قتلة عثمان ولهذا أجّل البيعة لعليّ، اجتهادًا منه رضي الله عنه، وأخطأ فيه، كتب الله له أجر اجتهاده وغفر له بمنه وكرمه، وعلمه بصدق إيمانه وحسن إسلامه الذي شهد له به رسوله ونبيّه صلى الله عليه وسلّم.

وكانت نظرة عليّ رضي الله عنه نظرة ماحصة صادقة من بصير بالأمور ومجاريها وتقدير سديد سليم لها ونظر ثاقب إلى مجاري الأمور اليوم وما تئول إليه غدًا، لكن جرت رياح المقادير بخلاف ما يشتهي!

وترتب على ذلك أمور عظام؛ إذ وقعت بعد ذلك مآسٍ ومصائب عظام، منها فقد الأمة عددًا كبيرًا من الصحابة، وآل البيت عليهم السلام، في مواقع وأحداث مؤسفة، كان لها أثرها العظيم في الفرقة بين المسلمين إلى اليوم.

ثم كان مشروع الحسن بن عليّ رضي الله عنه في الصلح بين المسلمين وجمع كلمتهم وتوحيد صفّهم نعم العمل الذي يصدر عن وارث حلم جدّه وعلم أبيه ومحبّ الخير للمسلمين، وكان هذا الصلح العظيم نهاية هذه العاصفة الشديدة التي بقيت تعصف بالمسلمين طيلة خمس سنوات أو يزيد، حتى منّ الله بزوالها على يدي ذلك المصلح الكبير، سيد المسلمين الحسن بن علي بن أبي طالب، كما أخبر بذلك جدّه نبينا صلى الله عليه وسلّم، فقد روى البخاري عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى المِنْبَرِ - وَالحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ إِلَى جَنْبِهِ -، وَهُوَ يُقْبِلُ عَلَى النَّاسِ مَرَّةً، وَعَلَيْهِ أُخْرَى وَيَقُولُ: "إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ المُسْلِمِينَ"[74].

بقي الإسلام وذهبت تلك العاصفة الكبيرة لكن بقيت درسًا للمسلمين في كلّ زمان ومكان، يتعرفون إليها، ويتعلمون منها، ويتبصّرون بنتائجها، ويحذرون من سيّئاتها وعواقبها.

عادت دولة الإسلام إلى وحدة شعبها من جديد، واستقرّت أمورها الداخلية في الغالب، وتوجّهت جيوشها ناحية الخارج تؤمن الحدود وتؤدّب المعتدين وتفتتح الفتوح وتنشر الدين، ومضت الأمور في هذه السبيل عقود بل قرون، حتى أتت محنة عظيمة تعصف بقلوب

---

[74] أخرجه البخاري (2704)، وانظر في تفاصيل الصلح: كتاب "مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري" (102-125) للدكتور خالد الغيث، وكتاب الحسن بن علي شخصيته وعصره، للدكتور علي الصلابي، الفصل الثاني.

المؤمنين، لقد كانت هذه المرّة محنة شبهات، لكنها كانت محنة عاصفة، شديدة، هوجاء، تدمّر الأخضر واليابس في القلوب ولا تبقي فيها ولا تذر، فماذا عنها، ما هي، وما خبرها؟ وما الذي آلت إليه في نهاية أمرها؟

هذا ما تقفنا عليه الصفحات القادمة بمشيئة الله تعالى.

(7)
المحنة

بعد مقتل ثالث الخلفاء الراشدين عثمان رضي الله عنه، بدأت تظهر في المسلمين فرق مبتدعة تخالف أهل السنة والجماعة في بعض منهجهم، وقد كان الخوارج أول هذه الفرق ظهورًا ثم زاد في عددهم أنَّ كل فرقة تظهر تتقدم فرقة جديدة مناقضة للتصدّي لها.

وقد كان للسلطة الشرعية دور كبير في كبت هذه الفرق والتضييق على دعاويها وقد ثبت في العهد الأموي ثم العباسي قتل رءوس بعض الفرق الضالة عقابًا لهم على الترويج لها ونشرها في الأمة حتى جاء المأمون العباسي الذي قلب الموازين فاختلف الناس وصارت المحنة التي حفظ الله فيها دينه من التحريف والتزوير، ولنبدأ في بيان ذلك مستعينين بالله:

"لم يكن قبل المأمون لأصحاب هذه المذاهب المخالفة لما عليه العامة حرية البحث وإظهار الآراء بل كانوا يخشون العامة ولم تكن لهم قوة من الخلفاء يرتكزون عليها لأن الخلفاء كانوا كذلك يراعون العامة لأن القوة فيها، فلما جاء المأمون رأى أن يجمع إليه العلماء من المتكلمين والفقهاء وأهل الحديث ويجعل لهم مجالس المناظرة ويظهر أنه كان يرمي إلى أن يتفق هؤلاء العلماء على رأي فيما يلقي عليهم من المسائل ليحمل الجمهور على ذلك الرأي وتتفق كلمة الأمة ولا سيما فيما يتعلق بمباحث أصول الدين ومباحث الإمامة"[75].

كان الاعتزال هو المذهب المنتشر في عهد المأمون حتى أن أعوانه ومستشاريه أمثال عينة بشر المريسي وثمامة بن أشرس وأبي الهذيل العلاف كانوا يدعونه إليه وينفثون سمومهم في رأسه حتى تأثر بهم واعتنق مذهبهم الذي خالف مذهب السلف في النقاط التالية:

- القول بأن أفعال العباد مخلوقة لهم لا لله.

---

[75] الدولة العباسية: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، محمد الخضري: (ص168).

- القول بأن مرتكب الكبيرة ليس بمسلم ولا بكافر بل هو في منزلة بين المنزلتين.
- نفي صفات الله عز وجل وتعطيلها ومنها تفرّع قولهم بخلق القرآن وهو مدار هذه المحنة العظيمة.

لم يكن المأمون طيلة أربع سنوات يجبر أحدًا على اعتناق ما اعتنقه، غير أنه كان يعرض الأمر على المقرّبين منه لاستمالته إياهم، ولكن هذا الوضع لم يعجب رءوس الفتنة فراحوا يؤلبونه ضد العلماء والفقهاء ممن يعرفون تأثيرهم على العامة حتى انتهى سنة 218ه إلى إجبارهم على القول بخلق القرآن واعتبار كل مخالف كافرًا لا نصيب له من الإيمان، وبعث بكتاب إلى إسحاق بن إبراهيم عامله على بغداد أمره فيه بجمعهم وامتحانهم في ذلك، فلما جمع أول نفر أجابوه إلى ذلك وقالوا إن القرآن مخلوق فخلى سبلهم وأفشى أمرهم بين الناس ليقتدي بهم بقية العلماء.

ثم أعاد المأمون إرسال كتاب يؤكد فيه على إسحاق بامتحان البقية وقد فعل، وكان فيهم بشر بن وليد، وعلي بن أبي مقاتل، وحسان الزيادي فأجابوا بأن القرآن كلام الله، والله خالق كل شيء، ومثل هذه الإجابات التي لا تصرّح بأن القرآن مخلوق أو هو صفة، وكان فيهم أيضا الإمام أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح اللذان صرحا بأن القرآن صفة لله غير مخلوق.

لم يرض المأمون بهذه الإجابات وأمر إسحاق أن يشدد عليهم هذه المرة حتى يقولوا بالقول الذي يرضاه، فما كان منهم إلا أن رضخوا إلى ذلك إلا أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح فتوجهوا بهما إلى طرطوس حتى يأتيهما المأمون فينظر في أمرهما.

ولما علم الإمام أحمد خطورة هذه المقابلة عليه وعلى دينه بات قائمًا متضرعًا لله عز وجل داعيًا إياه أن لا يُقدِّر له لقاءه فاستجاب الله دعاءه، وجاءه خبر وفاة المأمون، فأُعيدا إلى المدينة وحبسا هناك حتى تستقر أمور الخلافة من جديد.

والٍ جديد يأتي متحمسًا لمواصلة ما بدأه أخوه خاصة بعد التأكيد عليه في الوصية واستمرار التشجيع من رءوس الاعتزال الذين يحيطون به، لذلك استدعى المعتصم -الخليفة الجديد للدولة- أحمد بن حنبل بعد أن بقي وحده بموت محمد بن نوح، وأمر به فسجن وحده، ثمانية وعشرين شهرًا وقيل ثلاثين، حتى مرض فيه مرضًا شديدًا، وكان رؤوس الاعتزال يأتونه لينـاظروه فيدحض حججهم كل مرة بالقرآن والسنة.

استمرت المناظرات بالسجن ولم تكن لها إلا نتيجة واحدة وهي غلبة الإمام أحمد، فدعى المعتصم حينها إلى مناظرة علنية تفصل في الأمر، جمع لها رؤوس الاعتزال الجلادون استعدادًا لمعاقبة أحمد إن لم يرضخ لهم.

بدأت المناظرة بمحاولات المعتصم لاستمالة الإمام ولكنه صابر ومحتسب لا يتزحزح، ثم جاء بقية المعتزلة كلٌّ يحاججه وهو يأتيهم بالرد من كتاب الله وسنه رسوله، وطال الأمر حتى استمرّ ثلاثة أيام فأمر به الخليفة أن يجلد فأخذ الجلّادون في ضربه بالسياط، يتناوبون على ضربه؛ هذا يضربه سوطين والآخر ثلاثة وهكذا، حتى إذا بلغ سبعة عشر سوطًا قام إليه المعتصم وقال له: يا أحمد علام تقتل نفسك؟! إني والله عليك لشفيق، ثم جلد مرة أخرى وقال له المعتصم: أجبني إلى شيء فيه أدنى فرج حتى أطلق عنك بيدي، ومع ذلك الإمام صامد يحتسب عذابه في سبيل الله عز وجل.

لما بلغ التعذيب من الإمام مبلغه حتى أغمي عليه أطلق المعتصم سراحه خوفًا من ثورة أتباع الإمام عليه، وبقي يطبب في بيته وتداوى جراحه حتى شفي ورجع إلى الصلاة في الجامع وتحديث الناس والفتوى، وانتهت هذه الصفحة بموت المعتصم، ولكن صفحة المحنة لم تمت معه، فقد ورث ابنه الواثق الخلافة، وكان من أشد القائلين ببدعة خلق القرآن إذ قد تربى في حجر قاضي المحنة أحمد بن أبي دؤاد فكبر معتقدًا لها مدافعًا عنها وأجبر الناس جميعًا عليها وبلغت المظالم في عهده ذروتها حتى أن نفرًا من أهل بغداد بقيادة نصر بن أحمد الخزاعي اتفقوا على الخروج عليه واستفتوا الإمام أحمد في ذلك فلم يأذن لهم وأمرهم بالصبر.

خرج الإمام أحمد بعد ذلك هاربًا من الفتنة واختبأ حتى لا يعلم مكانه وظلّ كذلك شهورًا حتى أتاه خبر هلاك الواثق وقد كانت موجة التعذيب والظلم قد هدأت في آخر حياته بعد أن سمع أحد الشيوخ يرد على ابن أبي داؤد فيقول: هذا الذي تقوله من خلق القرآن شيء علمه رسول الله عليه الصلاة والسلام وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أو جهلوه؟

فقال: بل علموه.

قال: فهل دعوا إليه الناس كما دعوتهم أنت أو سكتوا؟

قال: بل سكتوا

قال: فهل وسعك ما وسعهم من السكوت؟ فسكت ابن أبي داؤد وأعجب الواثق بكلامه وأمر بإطلاقه وقام وهو يقول: هلا وسعك ما وسعهم؛

يكرر هذه الكلمة، فكأنها وقعت في قلبه فأحجم عما كان يمارسه من تعذيب.
تولى الخلافة بعد الواثق المتوكل وكان على منهج السلف متبعًا للسنة، فرفع الله به الغمة وأذن بالفرج وانتهت معه محنة كادت أن تذهب بأصول الإسلام ومنهجه.
هذه المحنة تعتبر من أشد المواقف التي مرّ بها الإسلام لعدة أسباب:
أولًا: "أن هذه المحنة كانت في باب العقيدة أي في صميم قلب الأمة، وفي أصل قوتها ومصدر عزتها.
ثانيًا: أن الدولة بكافة أجهزتها ورجالها وقوتها كانت تدعم هذه المحنة، حيث استطاع بعض أهل الاعتزال مثل بشر المريسي وأحمد بن أبي دؤاد وغيرهما من خداع ثلاثة خلفاء عباسيين متتاليين وهم: المأمون ثم المعتصم ثم الواثق، وإقناعهم بتبني عقيدة الاعتزال الضالة والمليئة بالبدع الغليظة، وليس فقط مجرد التبني والاعتناق، ولكن إجبار الناس على ذلك الضلال ولو بالقوة وحد السلطة التي لا تطيق عادة أن تخالف أو يتحدى سلطانها أي أحد مهما كانت مكانته وعلمه.
ثالثًا: أن هذه المحنة العاتية لم تكن خاصة بالإمام أحمد وحده، وإن كان قد تحمل عبأها الأكبر وحده، بل كانت محنة عامة وفتنة شاملة، طالت الكبير والصغير، العالم والعامي، الأحرار والعبيد، حتى الأسارى عند الأعداء كانوا يمتحنون على القول بخلق القرآن، فإن أجابوا وإلا تركوا رهن الأسر عند العدو ولم تفتكّهم الدولة.
رابعًا: أن هذه المحنة عندما وقعت لم يصمد فيها سوى الإمام أحمد بن حنبل وبعض العلماء القليلين، أما باقي العلماء فأغلبهم قد أجاب فيها كرهًا وبعضهم قد مات تحت وطأة التعذيب في سجن المبتدعة مثل البويطي ومحمد بن نوح ونعيم بن حماد، وكان صمود الإمام أحمد أعظم فصول هذه المحنة، وسبب تقدمه وشهرته ورفع ذكره، حتى صارت الإمامة مقرونة باسمه في لسان كل أحد فيقال: قال الإمام أحمد وهذا مذهب الإمام أحمد، ولو قدر الله عز وجل ولم يصمد الإمام أحمد في هذه المحنة لضلّ خلق كثير ولربما الأمة كلها والله أعلم، لذلك قال المزني رحمه الله: "عصم الله الأمة بأبي بكر يوم الردة وبأحمد بن حنبل يوم المحنة"[76].
إذًا فقد كادت هذه الفتنة أن تغيّر من أصول الاعتقاد وتحرف في الدين ولكن الله حفظه وسخّر له أحمد وأمثاله ممن ثبتوا على المنهج القويم

---

[76] انظر: تاريخ الإسلام، للذهبي: (71/18)، تذكرة الحفاظ، للذهبي: (432/2)، وسلسلة ترويض المحن، شريف عبد العزيز، مقالة بمفكرة الإسلام.

والفهم المستقيم، وإن لم يثبتوا فهل سيكتب الله لدينه الخذلان والاندثار في هذه المرحلة وهو الذي وعد المسلمين بالنصر مهما علا الباطل وبشرهم رسوله عليه الصلاة والسلام ببلوغه مشارق الأرض ومغاربها وصموده حتى يفني الله الأرض ومن عليها؟

لا يحدث ذلك أبدًا، فليس الله بمخلف وعده، وهانحن نرى اليوم أيضًا من تفرق الأمة وانقسام مناهجها ما يدمي القلب ويضعف القوى فما ينبغي لنا أن نستسلم أو أن نظن أن هذه النهاية ولنتذكر محنة خلق القرآن وما وقع فيها من ابتلاءات وشدائد ولنعقد العزم على تغيير ما يمكن تغييره حتى يصل الدين الصحيح للناس دون تلبيس عليهم وذلك بمناصرة أهل الحق وهجر أهل البدع والتضييق عليهم.

ولنا وقفة مع الدروس المستفادة من هذه المحنة الجليلة، ومن هذه الدروس:

- سعي أهل البدع في كل زمان ومكان إلى تحريف الدين الصحيح ونشر سمومهم بين أفراد الأمة.
- دور الدولة في التصدي لمثل هذه الأزمات واتخاذها القرارات الصارمة للحد منها، وأما إن كانت الدولة بسلطتها هي المؤيد والفاعل فهو مما يزيد الأمور تعقيدًا ويزيد أهل الباطل جرأة على أهل الحق.
- نصر الله الدين بالأمة أو بالرهط أو بالرجلين أو حتى بالرجل الواحد فما تلك إلا أسباب يسببها وهو القادر على نصر دينه من غيرها.
- صبر أهل الحق وثباتهم في الشدائد والزلازل من أعظم الأسباب التي تحفظ هذا الدين.
- دور العلماء في الفتن والمحن جليل عظيمن فبهم يقوم أمر العامة وبهم يقتدون في قوتهم أو في تخاذلهم.
- تأكد سنة الله في الفرج بعد الشدة والقوة بعد الضعف وانتصار الحق على الباطل.

وما لنا بعد هذه العبر إلا أن نقول: فليبق إيماننا راسخًا بأن دين الحق لا يقدر عليه أهل الباطل مهما كادوا له المكائد وحاكوا له الخدع، فالله يحفظه من فوق سبع سماوات ويذلل له كلّ المصاعب والعقبات فيتجاوزها منصورًا غالبًا تترعرع جذوره في قلوب المسلمين ويشتد عوده على الكافرين.

مضت هذه المحنة العاصفة بفضل الله وستره كما مضت كل العواصف قبلها، ولم تكن الأخيرة بل تبعتها غيرها مما هو مثلها او أشد، وإن كانت هذه المحنة الشديدة على الإسلام قد جاءته من الداخل من الأصدقاء الجهلة، فلم يكد ينته ذلك العصر وتهدأ الأحوال قليلًا

حتى ضربت جنبات العالم الإسلامي محنة أخرى شديدة عاصفة وإن كانت هذه المرة من خارجه من الأعداء الحقدةن وهو ما نقصه عليك في الصفحات التالية:

(8)
التتار

كان العالم في أوائل القرن السابع للهجرة خاضعًا- جغرافيًا واجتماعيًّا - لسيطرة قوتين أساسيتين هما: الدولة الإسلامية التي تبدأ من غرب الصين وتمتد عبر آسيا وإفريقيا لتصل إلى غرب أوربا حيث بلاد الأندلس، والدولة الصليبية المتمركزة أساسًا في غرب أوروبا مع تجمعات أخرى متفرقة، وقد كانت الصراعات بين القوتين قائمة غير منقطعة زاد في حدتها الفرقة الشديدة الواقعة في الدولة الإسلامية التي أضعفت شأنها وأذهبت هيبتها فتجرأ الصليبيون عليها وراحوا يشنُّون الحملة وراء الأخرى للنيل منهم.

وفي سنة 603ه ظهرت في العالم قوة جديدة مثلت مفاجأة كبيرة للقوتين السابقتين من حيث قوتها وعددها وسرعة تنفيذها لمخططاتها، هذه القوة هي دولة التتار أو دولة المغول التي خرجت من شمال الصين بقيادة جنكيز خان الذي جمّع حوله قبائل تلك المنطقة حتى كوّن جيشًا عظيمًا شرسًا دمويًّا لا قانون يحكمه سوى "الياسق" ذاك الدستور الذي ابتدعه جنكيزخان فخلط فيه الأحكام من كل الشرائع والديانات وزاد فيه ما يوافق هواه وعقله وجعله المرجع الوحيد لهم، وهو ما يبين فساد عقائد هذه الدولة.

كان هدف دولة التتار السيطرة على كل شبر في العالم بأي وسيلة، لذلك فقد اتخذوا من القتل والتدمير والحرق أساليب لهم في التخلص من مدن كاملة حتى ولو لم تبدِ أي صدٍّ لهجومها وذلك لترويع بقية المدن فيبدون استسلامهم لهم، وكان أيضًا من أهدافهم الأساسية القضاء على الخلافة الإسلامية في بغداد واحتلال أراضيها ثم بقية أراضي الدولة الإسلامية كالشام ومصر.

كانت هذه عاصفة جديدة تثور في وجه الإسلام محاولة استئصاله من الأرض ومحو كلّ الآثار الدالة عليه، عاصفة عاتية شديدة، ولنعاين بعض ذلك:

بدأ جنكيزخان بسط نفوذه بالسلاح والدم على مساحات واسعة وكانت تحركاته سريعة لأنه لا يراعي في حربه صغيرًا ولا كبيرًا، رجلًا ولا امرأة، ولا أخضر ولا يابس بل يدمّر هو وجيشه كل ما اعترض طريقهم، ثم وضع مخططاته للتغلغل في الأراضي الإسلامية بداية من الدولة الخوارزمية التي يحكمها آن ذاك محمد خوارزم شاه، وبالرغم أن الملكين كانا على عهود واتفاقيات بينهم إلا أن جنكيزخان لم يكن له

أدنى وفاء بالعهد بل كان غادرًا ماكرًا لا يتعامل إلا بما تقتضيه مصالحه، وهذا ما يزيد الأمور خطورة.

وربما حدثت حادثة أو وقعت مشكلة - يذكر بعض المؤرخين أنها السبب في نقض ذلك العهد بين المغول والخوارزميين؛ وخلاصة ذلك أن والي أحد ثغور مملكة خوارزم شاه على نهر سيحون قد طمع في أموال جماعة من التجار المغول كانوا قد جاءوا إلى هذا الثغر سنة 615ه ومعهم أموال طائلة.

وقد تذرّع الوالي للاستيلاء على أموال هؤلاء التجار باتهامهم بالتجسس لحساب جينكيزخان وكتب إلى شاه خوارزم بذلك فأمره بقتلهم وكانوا نحو أربعمائة كما أمره بالاستيلاء على ما معهم من التجارة وكان شيئا كثيرا فنفذ أمر الشاه واستولى على تلك التجارة وباعها لتجار بخارى وسمرقند وقبض ثمنها.

ولما بلغ ذلك جينكيزخان استشاط غضبًا وأرسل رسولًا إلى خوارزم شاه يطلب إليه تسليم هذا الوالي ليقتص منه فارتكب خوارزم شاه غلطة أخرى وقتل رسول خان المغول[77].

وبذلك أتاح لجنكيزخان فرصة مهاجمة أملاكه ودفعه الغرور إلى البدء بالعدوان فجمع جيشه وهاجم حدود التركستان الغربية مما يلي مملكته، ولم يكن على حدود بلاد المغول حامية قوية لأن جينكيزخان وجيشه كانوا في مهمة داخل الأمبراطورية، ولم يكن على الحدود سوى عدد قليل من النساء والأطفال ومع ذلك لم يتمكن ذلك المغرور من التغلب عليهم وعاد بخفّي حنين[78].

ولئن صح كل ذلك أو بعضه فلا يعدو أن يكون سببًا من الأسباب - لا كلّ الأسباب - التي دفعت بالمغول إلى غزو ديار الإسلام، ومن أظهر الدلائل على ذلك أن الزحف المغولي لم يتوقف عند حدود الدولة الخوارزميّة بل تخطاه إلى كل دول الإسلام.

في سنة 616ه كانت أولى هجمات التتار على الدولة الخوارزمية، وقد تصدى له محمد خوارزم شاه بجيشه أربعة أيام كاملة ومات من الجيشين خلق كثير، ولما رأى محمد شاه أن أعداد التتار مهولة لا تنقص مهما قتلوا منهم فضّل الانسحاب، فتوجه إلى بخارى ليعيد تجهيز الجيش ويحمي أملاكه وأمواله، ولكن جيش التتار لحقوهم إليها وحاصروهم هناك ثلاثة أيام ثم طلبوا الأمان خديعة ومكرًا، واستعمل جنكيزخان أهلها لبلوغ القلعة حتى دخلها وأمر بقتل كل من فيها وبذلك

(77) المختصر في أخبار البشر، أبو الفدا: (3/ 136).
(78) الكامل، ابن الأثير: (150/12).

استباح كامل المدينة "فاصطفى أموال تجارها وأحلّها لجنده فقتلوا من أهلها خلقًا لا يعلمهم إلا الله عز وجل، وأسروا الذرية والنساء وفعلوا الفواحش بحضرة أهليهن، فمن الناس من قاتل دون حريمه حتى قُتل، ومنهم من أسِر فعذب بأشد أنواع العذاب.. ثم ألقت التتار النار في دور بخارى ومدارسها ومساجدها فاحترقت حتى صارت خاوية على عروشها"[79].

كل هذا وهم في أول هجمة لهم على الدولة الخوارزمية، فأي توحُّش هذا وأي حب للتدمير والتخريب هذا الذي غرسه جنكيزخان في مقاتليه؟

ثم واصل الجيش التتاري طريقه من مدينة إلى أخرى يخربون وينهبون يحرقون ويقتلون حتى ملكوا في سنة واحدة كل الممالك التي بالناحية الخوارزمية من الشمال والوسط وحان الوقت ليتوجهوا جنوبًا حيث كانت تحت سيطرة جلال الدين بن محمد بن خوارزم شاه.

جمع هذا الأخير جيشًا كبيرًا كونه بعد تحالفه مع عدة ملوك للتصدي لهجوم التتار، وكانت معركة شديدة رهيبة، قاتل فيها المسلمون ببسالة وزاد اجتماعهم وحسن قيادتهم من قوتهم فعلت همتهم لما رأوا من غلبتهم على جيش الكفار وكثفوا جهودهم حتى انتصروا بفضل الله على جيش التتار لأول مرة وقد ظنوا من قبل أنه جيش لا يُهزم وكان ذلك من جميل أقدار الله ليذكرهم أن ما من قوة في الأرض إلا والله أقوى منهم وما من جيش مهما بلغ عدده وعدته فهو خاسر إن حارب دينه وأن في اجتماع المسلمين وتوحيد صفوفهم سببًا لاستجلاب النصر.

وحقق المسلمون بعد ذلك نصرًا آخر في معركة كابل وكانت أعنف من سابقتها، وخرج فيها المسلمون مع النصر بغنائم كثيرة وأموال طائلة، وليتهم لم يفعلوا فقد كان في ذلك فتنتهم وانشغالهم بالمال دون الجهاد فاقتتل الملوك فيما بينهم وتنازعوا في ذلك حتى فشلوا وذهبت ريحهم وكانت تلك الفرصة لجيش التتار لينال منهم وقد تقسموا وتفرقوا وقلّ عددهم، فاجتمعوا عليهم وقتلوا كلّ سكان المدينة سوى جلال الدين وبعض مقربيه وأعوانه الذين فروا في السفن نحو بلاد الهند.

كما كان توحد المسلمين واجتماعهم على الجهاد في سبيل الله سببًا في نصرهم فإن عكس ذلك من الفرقة والتشتت والصراعات الداخلية كان

---

[79] انظر: البداية والنهاية: (99/13).

سببًا في هزيمتهم وحرمانهم وقتلهم، تلك سنة الله يا أولي الألباب لعلكم تعقلون!
إذًا فقد بات الخطر قريبًا جدًّا من بغداد والخلافة العباسية، لذلك حاول الخليفة الناصر لدين الله -الذي كان مجرد صورة على الملك ولم يكن له كبير خبرة في المجال السياسي والحروب- حاول جمع أكبر عدد ممكن من المقاتلين ليكوّن بهم جيشًا يعتمد عليه في الدفاع عن أرضه، ولم يظفر إلا بثمانمائة مقاتل وهو عدد هزيل سيسحقه التتار عند أول المواجهة.
لئن عجزت الأسباب فلا ننسى أبدًا مسبب الأسباب عز وجل، فبرغم كل ما سبق من ضعف وهوان في الدولة الإسلامية إلا أن جيش التتار انسحب وفضل عدم الدخول في المعركة اعتقادًا منه أن الثمانمائة مقاتل ما هم إلا مقدمة للجيش المسلم وأما البقية فإنهم مختفون وهذا من تدبير الله عز وجل لدينه فقد قذف في قلوب الكافرين الرعب حتى ولّوا مدبرين، كما تكرر هذا الموقف لما أرادوا الدخول إلى تبريز فعلموا أن قائدها شمس الدين الطغرائي قد جند الجيوش لقتالهم وحثهم على الجهاد والنصر أو الشهادة فمروا عليها مخذولين قد تمكن منهم الرعب فلم يرفعوا راية القتال.
وفي سنة 622ه ظهر جلال الدين بن خوارزم شاه من جديد بعد فراره، وقد أعلن الحرب على الخلافة العباسية وقد كانت العداوة بينهما قديمة كما حدثت عدة اضطرابات بينه وبين أخيه غياث الدين حول الحكم، في حين أن جيش التتار قد هدأت حملاته الشرسة في تلك الفترة ثم مات زعيمهم جنكيزخان سنة 624ه فاحتفظوا بما فتحوه من مدن دون تقدم جديد حتى يأتي القائد الجديد.
تولى الزعامة بعد ذلك أوكيتاي الذي وضع شورماجان قائدًا على الجيش و بدأ استعداده لمهاجمة المسلمين وقد بلغهم ما وصل المسلمون إليه من ضعف وقتها بعد نزاعاتهم وصراعاتهم فلا تكاد تجد منهم مقاومة وهذا ما فسح المجال للتتار أن يقتلوا كلّ من اعترض طريقهم دون أي خوف أو تراجع.
يروي ابن الأثير في الكامل في أحداث السنة الثامنة والعشرين بعد الستمائة بعض الصور التي استمع إليها بأذنه من بعض الذين كُتبت لهم نجاة أثناء حملات التتار على المدن الإسلامية فيقول: "كان التتري يدخل القرية بمفرده، وبهذا الجمع الكثير من الناس فيبدأ بقتلهم واحدًا

تلو الآخر، ولا يتجاسر أحد المسلمين أن يرفع يده نحو الفارس بهجوم أو بدفاع!"[80].

وعادت حملات التتار لأوجها من جديد فسيطروا على إقليم فارس عدا ما كان منها للطائفة الإسماعيلية الغادرة التي كانت في تعاون دائم معهم، ثم سيطروا على مملكة الكرج النصرانية، وتوجه فريق منهم إلى شمال بحر قزوين للسيطرة على تركيا ثم اتجهوا إلى روسيا فضموها إليهم كما فعلوا ذلك مع أوكرانيا وتواصل مسيرهم وفرض قوتهم حتى ضموا إليهم نصف أوروبا تقريبًا.

في عام 639ه توفي زعيم التتار أوكيتاي وتولى ابنه كيوك منصبه بعده وكانت فترة حكمه هادئة نسبيًا دامت سبع سنوات سعى فيها إلى ترسيخ الحكم بالأراضي التي سيطروا عليها دون الدخول إلى مدن جديدة، فلما توفي تولى بعده مونكوخان الزعامة وكان في نهجه مثل جنكيزخان، وقسم الأراضي التترية بينه وبين إخوته لفرض مزيد من السيطرة والنظام عليها وللبدء في حملاتهم الوحشية من جديد، وكان قد سلم إقليم فارس إلى أخيه هولاكو الذي بدأ في سرعة التجهيز للقضاء على الخلافة العباسية التي كان يحكمها آن ذاك المستعصم بالله بعد وفاة أبيه سنة 640ه، وكان الخليفة الجديد صالحًا في نفسه ولكنه غير عالم بأمور السياسة "وافتقر إلى أمور لا يصح أن يفتقر إليها حاكم مسلم وهي:

"- القدرة على إدارة الأمور والأزمات وكفاءة القيادة.

- علو الهمة والأمل في سيادة الأرض والنصر على الأعداء ونشر دين الله.

- الشجاعة التي تمكنه من أخذ قرار الحرب في الوقت المناسب.

- القدرة على تجميع الصفوف وتوحيد القلوب ونبذ الفرقة ورفع راية الوحدة الإسلامية.

وافتقر أيضًا إلى حسن اختيار أعوانه"[81]، فاجتمعت عليه بطانة سوء أكبرهم وزيره مؤيد الدين العلقمي الشيعي الذي كان حليفًا للتتار فسهل لهم الدخول إلى بغداد وقتل الخليفة ليتولى بذلك مجلس الحكم هناك، وقد بدأ التتار في احتلالهم لبغداد بالقضاء على الطائفة الإسماعيلية لخطرهم ولوجود ثأر بينهم، ثم اتجهوا إلى عاصمة الخلافة بغداد.

وفي الثاني عشر من محرم لسنة 656ه دخل هولاكو بغداد في جش عدده مائتي ألف مقاتل قسمه بخبرة كبيرة وحاصر به الخليفة، "وجيوش بغداد في غاية القلة ونهاية الذلة، لا يبلغون عشرة آلاف

---

[80] الكامل في التاريخ (10/ 450).

[81] انظر: محنة الإسلام الكبرى (152).

فارس، وهم بقية الجيش"[82]، فقد صرف الآخرون إلى أعمال أخرى تدبيرًا من الوزير الفاسد للخليفة.

قام مجاهد الدين أيبك بقيادة هذا الجيش الصغير ناحية الشمال حيث علم أن فرقة أخرى ممن التتار بقيادة "بيجو" قد صارت على مقربة من العاصمة الإسلامية التي ستحاصر تمامًا إن بلغوها، وقد خدعهم الجيش التتاري بتظاهرهم بالانسحاب ليطوقوهم عند منطقة الأنبار ويقطعوا عليهم طريق الهروب ثم أبادوهم ومزقوهم شرّ ممزّق إلا فرقة صغيرة استطاعت الهروب مع قائدهم مجاهد الدين أيبك، وتقدم التتار محكمين بذلك الحصار على العاصمة العباسية هم من الغرب وجيشهم الثاني من ناحية الشرق.

ولما كان الموقف عصيبًا لا مخرج منه على ما يبدو وافق الخليفة المستعصم بالله على التفاوض مع هولاكو خاصة بعد أن بدأ بقصف المدينة بقذائف نارية وحجرية مؤكدًا على عدم تورعه في قتل كل من فيها، فذهب هو بنفسه مع وفد بلغ سبعمائة من العلماء والقادة والأئمة والتجار والأعيان وبعض أبنائه وعلى رأسهم الوزير الخائن العلقمي لهولاكو الذي استغل قدومهم وقتلهم ذبحًا واحتفظ بالخليفة على قيد الحياة لاستعماله في مآربه الخبيثة واتضح للخليفة جليًّا تآمر وزيره مع هولاكو ضده ولكن ذلك لم يكن ليزيده إلا حزنًا وحسرة.

واستبيحت بغداد..

"استبيحت مدينة الإمام أبي حنيفة، والإمام الشافعي، والإمام أحمد بن حنبل، استبيحت مدينة الرشيد الذي كان يحجُّ عامًا ويجاهد عامًا، استبيحت مدينة المعتصم فاتح عمورية ببلاد الروم، استبيحت عاصمة الإسلام على مدار أكثر من خمسة قرون، وفعل التتار في المدينة ما لا يتخيله عقل.." [83].

استبيحت المدينة لجند التتار أربعين يومًا كاملة قتلوا فيها من شاءوا وسبوا من شاءوا ودمروا ما شاءوا.

وكانت الحصيلة مليون قتيلًا مع دمار شامل بالمدينة ولم يكتفوا بذلك فقاموا بما هو أشنع وهو تدمير مكتبة بغداد العظيمة، أكبر مكتبة في ذاك الزمان وكنز من العلم، وقد جمعت على مدار ستمائة عام.

كم هو عظيم مصاب الإسلام هذه المرة فهاهم العلماء يقتلون ومثلهم حفظة القرآن وتُفسد الكتب الحاوية لكل العلوم، ولو تفكر شخص عاقل بحكمة لوضع احتمالًا واحدا يكون نتيجة هذه الأحداث الدامية ألا وهو

---

(82) انظر: البداية والنهاية (201/ج13).

(83) قصة التتار من البداية إلى عين جالوت، راغب السرجاني: (ص 152).

نهاية الإسلام في تلك الأرض واندثاره ومحو آثاره، ولكن أقدار الله تختلف عما يتوقعه العقل البشري وسنصل إلى تفصيل ذلك في موضعه إن شاء الله:

قتل آخر خليفة عباسي في مشهد من الذلّ والإهانة لا مثيل له، ثم مات الوزير العلقمي، وجعل هولاكو حامية تترية على بغداد وبدأ الاستعداد لخطوات جديدة.

الوجهة التالية..الشام ثم مصر: بدأت سلطة التتار تستقر في تلك المنطقة خاصة مع تشكيل تحالفات قوية مع ملوك الدول الصليبية بتلك الأرجاء وناحية الشام وتركيا، كما أن الجبناء من ملوك المسلمين مثل الأمير بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل والأمير كيكاوس الثاني والأمير قلج أرسلان الرابع من منطقة الأناضول -وسط وغرب تركيا- و الأمير الأشرف الأيوبي أمير حمص والأمير الناصر يوسف (حفيد صلاح الدين الأيوبي) أمير حلب ودمشق، جاءوا طالبين الأمان منهم وهذا مما زاد ضعف الشعوب وإحباطهم ويأسهم من النصر والخروج من الشدة، فهؤلاء الأمراء يمثلون معظم شمال العراق وأرض الشام وتركيا، إذن لقد حُلَّت المشاكل أمام هولاكو، لقد فتحت بلاد المسلمين أبوابها له دون أن يتكلف قتالاً.

إلا أن أحد الأمراء شرقيَّ تركيا في مدينة ميافارقين وهو الكامل محمد رفض الاستسلام للتتار أو عقد الصلح معهم أو طلب الأمان منهم، بل حرّض جيوشه للجهاد معه ضد التتار فأرسل له هولاكو جيشًا بقيادة ابنه أشموط فحاصرهم ثمانية عشر شهرًا وهو ما يدل على استبسال المسلمين في القتال وصد الهجوم.

ولمّا كان الكامل محمد رحمه الله وحده مع جيشه بدون مدد من أمراء المسلمين الذين رفضوا نجدته فقد تمكن منهم جيش التتار وقتلوهم جميعًا وأسروا البطل محمد الكامل وذهبوا به إلى هولاكو ليتفنن في تعذيبه قبل قتله.

سقطت ميافارقين وتلتها حلب ثم حماة- وقد سلّمها أعيانها لهولاكو بدون قتال- وفي الطريق إلى دمشق جاء خبر وفاة منكوخان زعيم دولة التتار، فرأس هولاكو القائد كتبغا مكانه وذهب إلى قراقوم حيث سيتم اختيار الزعيم الجديد.

قرر أعيان دمشق تسليمها أيضًا للتتار بدون مقاومة فبعد تلك الدعوى الزائفة التي نادى بها الناصر يوسف إلى قتال التتار حفاظًا على منصبه فرّ هاربا لجبنه وعدم قدرته على تحمل القتال، وكان ركن

الدين بيبرس من الصالحين في الدولة فدعا إلى الجهاد حقيقة والصمود في وجه العدو فلما لم يجد إجابة ولا تشجيعًا رحل إلى غزة بفلسطين.
وسقطت دمشق في أواخر صفر سنة 658ه واخترقها الجيش التتاري وحلفاؤه من ملوك النصارى الذين ما دخلوها من سنة 13 ه بعد فتحها حينها.
ثم ماذا؟
ثم إن التتار توجهوا بقيادة كتبغا إلى فلسطين فاحتلوا نابلس ثم غزة حتى صارت فلسطين تحت سلطة التتار من جهة وسلطة الصليبيين من جهة أخرى.
"وبهذا الاحتلال الأخير لفلسطين يكون التتار قد أسقطوا العراق بكامله وأجزاء كبيرة من تركيا، وأسقطوا أيضًا سوريا بكاملها، وكذلك أسقطوا لبنان، ثم فلسطين، وقد حدث كل ذلك في عامين فقط.." [84]،
ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!
وباتت الوجهة التالية معلومة باقترابهم من حدود سيناء، إنها مصر!
لم تكن مصر في ذلك الوقت أحسن حالًا من بقية الدول الأخرى، فقد كانت تحت حكم المماليك وكانت تعيش اضطرابات كبيرة نتيجة لقتل الملك الصالح نجم الدين أيوب وقتل زوجته شجرة الدر، فلم يكن من خيار لتولي الحكم بعدهم إلا ابنهم المنصور نور الدين علي، وكان طفلًا لم يبلغ الخامسة عشر بعد ولا يفقه في أمور الدولة شيئًا، وكان سيف الدين قطز هو الوصيّ عليه.
قطز هو ابن أخ جلال الدين الخوارزمي الذي انتصر على التتار في معركتين كما ذكرنا في البداية، وكان ممن أسره التتار قبل هروبه مع عمه نحو الهند ثم بيع لمن جاء به إلى مصر وكبر متنقلًا بين أسياده حتى وصل إلى علية القوم، وهذا من تدابير الله عز وجل، وقد كان رجلًا حكيمًا شجاعًا عالمًا بأمور السياسة وأحوال البلاد في ذاك الزمان، وكان يسعى جاهدًا للحفاظ على ما تبقى من أراضي المسلمين، فاتخذ سنة 657ه قرارًا جريئًا بعزل السلطان الطفل وتولي زمام الأمور مكانه حتى تكبر هيبة الدولة ويستطيع بسلطته الحدَّ من القلاقل التي تواجه البلاد وهي على مشارف قتال مع أقوى سلطة بشرية في الأرض حينها.
وقد طمأن القادة والعلماء والأعيان إلى أنه لا يطمع في الحكم ولا تصبو إليه نفسه وإنما فعل ذلك ليواجه العدو فإذا تمكن من دحره فإن

---

[84] قصة التتار (204).

الأمر لهم بعد ذلك، وساهم هذا بشكل كبير في تهدئة الشعب وتقليص الاضطرابات الداخلية.
وكان من الممكن بعد ذلك أن يحدثهم عن الجهاد ويحثهم عليه بعد أن نسوا تطبيقه في ظل الظروف الاجتماعية والاقتصادية الصعبة التي يعيشونها.
ثم بدأ العمل خارجيًّا وسعى لتجميع أكبر تحالفات ممكنة مع الجيران المسلمين لعلمه أن الوحدة سبب هام في مواجهة التتار والانتصار عليهم.
بدأ قطز يجهّز الجيوش ويوحِّد الصفوف وهو يلين الخطاب تارة ويشدده تارة، ويحفز الهمم تارة، ويذكّر بالنصر والشهادة أخرى حتى استجاب له خلق كثير وما ذلك إلا بفتح من الله عز وجل وجزاء له على ثباته أمام الفتن والمحن.
رصد هولاكو تحركات قطز و علم أنها خطوات جدية لمواجهته ولا تمت إلى الهزل والجبن الذي قام به الناصر يوسف من قبل في شيء، فأراد أن يشن عليه حربًا نفسية قبل ذلك لعلها تؤتي ثمارها وتسلم لهم مصر بدون قتال كمثيلاتها من المدن الأخرى، فأرسل له رسالة تهديد ووعيد جاء فيها ما يلي:
"باسم إله السماء الواجب حقه، الذي ملكنا أرضه، وسلطنا على خلقه، الذي يعلم به الملك المظفر الذي هو من جنس المماليك، صاحب مصر وأعمالها، وسائر أمرائها وجندها وكتابها وعمالها، وباديها وحاضرها، وأكابرها وأصاغرها، أنّا جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حلَّ به غيظه، فلكم بجميع الأمصار معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، وسلِّموا إلينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء، ويعود عليكم الخطأ، فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرق لمن اشتكى، فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد، فعليكم بالهرب، وعلينا بالطلب.
فأي أرض تؤويكم؟ وأي بلاد تحميكم؟ وأي ذلك ترى؟ ولنا الماء والثرى؟ فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من أيدينا مناص؛ فخيولنا سوابق، وسيوفنا صواعق، ورماحنا خوارق، وسهامنا لواحق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال!
فالحصون لدينا لا تمنع، والجيوش لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يُسمع؛ لأنكم أكلتم الحرام، وتعاظمتم عن ردِّ السلام، وخنتم الأيمان، وفشا فيكم العقوق والعصيان، فأبشروا بالمذلة والهوان (فاليوم تجزون

عذاب الهون بما كنتم تعملون)، (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون).

وقد ثبت أنّا نحن الكفرة وأنتم الفجرة، وقد سلّطنا عليكم من بيده الأمور المدبرة، والأحكام المقدرة، فكثيركم عندنا قليل، وعزيزكم لدينا ذليل، وبغير المذلّة ما لملوككم علينا من سبيل؛ فلا تطيلوا الخطاب، وأسرعوا ردَّ الجواب، قبل أن تضرم الحرب نارها، وتوري شرارها، فلا تجدون منا جاهًا ولا عزًّا، ولا كتابًا ولا حرزًا؛ إذ أزّتكم رماحنا أزًّا، وتُدْهون منا بأعظم داهية، وتصبح بلادكم منكم خالية، وعلى عروشها خاوية؛ فقد أنصفناكم إذ أرسلنا إليكم، ومنّا برسلنا عليكم"[85].

عقد قطز بعد قراءة هذه الرسالة مجلسًا استشاريًّا ولما رأى تقاعس الكثيرين عن القتال وتثبيطهم للقوم فأعلمهم أنه عازم على القتال هو بنفسه على رأس الجيوش وذكرهم بدأب نبيهم وصحابته والسلف من بعده في الجهاد وبذل الأنفس والأموال في سبيل الله فكان لذلك بالغ الأثر فيهم حتى تشجعوا للقتال وأيّدوا قائدهم في قراره.

وقام بعد ذلك بفعل جريء لا يقوى عليه إلا ذو نفس مؤمنة متوكلة على الله لا تخاف فيه لومة لائم، فقد قتل الرسل التي جاءته بالرسالة وعلق رءوسهم على باب القاهرة فحميت بذلك دماء المسلمين وتحمسوا للقتال، وسعى قطز إلى تجهيز الجيش رغم عدة عراقيل اقتصادية واجهته استطاع تجاوزها بفضل الله ثم بوجود علماء صالحين عاملين بالحق مثل الشيخ العزّ بن عبد السلام.

حضر الجيش وأشار عليه قطز التوجه إلى فلسطين لتحويل المعركة هناك، بعد أن أقنع مستشاريه بأن ذلك لصالحهم، فبدأت تحركاتهم في شعبان سنة 658ه في شدة الحرّ وشدة الصحراء القاحلة وكانوا مقسمين حسب خطط للقتال متهيئين لأي هجوم مفاجئ من التتار.

أمر قطز مقدمة الجيش التي اختار لها رجالًا أفذاذًا بقيادة ركن الدين بيبرس بالتقدم والتصدي لأي هجوم حصل في الطريق أو عند دخول فلسطين وذلك لحماية بقية الجيش المتأخر، وكان هذا دلالة على ذكائه وخبرته الميدانية، فلما رصدوا فرقة من التتار تحركات المقدمة في حدود فلسطين اعتقدوا أن هذا الجيش بأكمله وتربصوا بهم حتى بلغوا غزة وهجموا عليهم، ولكن هيهات فقد كانت مقدمة جيش المسلمين على صغرها قوية اختير لها أقوى الرجال كما أسلفنا، فانتصروا على عدوهم فقتلوا بعضهم وفر الآخرون لنقل الأخبار إلى زعيمهم كتبغا.

---

(85) السلوك لمعرفة دولة الملوك، للمقريزي: (514/1).

"لقد كان لموقعة غزة أثر إيجابي هائل عل جيش المسلمين وكان لها أيضا أثر سلبي هائل على جيش التتار"[86].

جُنَّ جنون زعيم التتار لهذه الأخبار فلم يتردد في العبور من لبنان إلى فلسطين وقد علم المسلمون بذلك وعلم القائد قطز فأسرع بالجيش الرئيسي إلى عين جالوت وهو المكان الذي اختاره لتدور فيه المعركة لأنها تناسب خططه فقد كانت أرضًا منبسطة تحيط بها التلال والأحراش والأشجار إلا من جانب واحد.

نظّم قطز جيشه في المكان ونصب الكمائن التي تساعدهم على الإطاحة بالعدو وجعل مقدمة جيشه الطعم الذي سيجلب التتار إلى المكان الذي اختاره بينما يبقى الجيش الرئيسي مختبئًا ينتظر الوقت المناسب للقتال حين يتعب جيش التتار وتبدأ حدتهم في الزوال، ومن توفيق الله له أن خلقًا كثيرًا من أهل فلسطين انضموا إلى صفه وقاتلوا معه.

كما أن أمرًا آخر حصل بتدبير الله لدينه ولهذه الفئة المجاهدة، فقد جاء رسول من صارم الدين أيبك وهو أحد الأسرى الذين استعملهم التتار في القتال معه، جاءهم بمعلومات مهمة عن عدوهم فيها أنهم أضعف من عادتهم وأن الميمنة فيهم أقوى من الميسرة وأن صارم الدين ومعه الأشرف الأيوبي سيكونون في الجيش وسيمكنون المسلمين من النصر.

كانت هذه أخبار مهمة جدًّا للمسلمين ولكنهم أخذوها بالحذر لعلها تكون خدعة من قبل عدوهم.

معركة عين جالوت: كان الأمر كما خطط له قطز؛ إذ في يوم الخامس والعشرين من رمضان سنة 658ه وبعد ليلة طويلة من الدعاء والتهجد وطاب العون من الله عز وجل وإثر صلاة الفجر رأى المسلمون جيش التتار المهول وهو يقترب منهم.

وجاء الأمر للمقدمة ببدء القتال فانسابت الكتائب واحدة تلو الأخرى بكلّ بسالة وشجاعة نحو التتار الذين تعودوا فقط على الضعف والخنوع من قبل جيش المسلمين فصدمهم ما كانوا يرون من إقدامهم ونظامهم وحسن تدرُّعهم حتى حق فيهم قول الله تعالى: {فبهت الذي كفر} كما كانت هناك كتيبة تفرّغت للموسيقى العسكرية بضرب الطبول والصنوج النحاسية التي كانت من جهة ترهب العدو وتشعره بقوة الجيش، ومن جهة أخرى كانت جهة لبثّ الأوامر المشفّرة عبر

---

[86] قصة التتار (ص303).

دقّات وأصوات معيّنة اتفق عليها الجيش المسلم فكان ذلك سببًا في إلقاء الرعب في قلوب التتار.
وجاءت إشارة البدء فارتطمت الفئتان في مشهد عظيم يذكّر بغزوات النبي عليه الصلاة والسلام مع صحابته ضد الكفار، وحمي وطيس المعركة وزادت شدة القتال فيها وقد انخدع قائد التتار بالخطة التي استعملها قطز؛ إذ لم يلاحظ وجود بقية الجيش خلف التلال، ولما رأى أن مقدمة الجيش الإسلامي تبلي بلاء حسنًا في القتال ألقى هو بكافة جنده في المعركة دون ترك جزء للاحتياط أو التعويض لاحقًا.
نفّذت مقدمة الجيش الإسلامي الجزء الخاص بهم كأحسن ما يكون فقد صمدوا وصبروا حتى استنزفوا الجهود من التتار وأضعفوا قوتهم، وهنا حان وقت المفاجأة للعدو بتنفيذ الجزء الخاص بالجيش الرئيسي الرابض خلف التلال والأحراش.
بدأ ركن الدين بيبرس في سحب جيش التتار إلى داخل سهل عين جالوت وقد كان ذلك من الدقة والصعوبة بمكان "فكان عليه أن يُظهِر الانهزام أمام التتار، ويتراجع بظهره وهو يقاتل، على ألا يكون هذا التراجع سريعًا جدًّا حتى لا يلفت أنظار التتار إلى الخطة، ولا بطيئًا جدًّا فتهلك القوة الإسلامية القليلة أثناء التراجع"[87].
نجح ركن الدين بيبرس في ذلك فجاء الأمر من قطز إلى الجيش الرئيسي عبر الفرقة العسكرية، وانهالت الكتائب الإسلامية من بين التلال كأنها السيل تمحق معها قوات التتار محقًّا والتفّوا عليهم وأغلقوا المخرج الوحيد من ناحية الشمال لئلا يتمكنوا من الفرار منهم ودارت بذلك معركة طاحنة لا مثيل لها.
ومن شجاعة قطز رحمه الله أنه لمّا رأى ضغط الميسرة من جيش التتار يزداد على ميمنة الجيش المسلم وأن القوات الاحتياطية لا تفيدهم نزل بنفسه إليهم وصرخ فيهم: "وا إسلاماه" وكانت كلمته الشهيرة والمتكررة في المعركة ليذكرهم أن الفوز للإسلام ولو على حساب أنفسهم، وقاتل معهم قتالًا شديدًا وهو راكب، ثم أصيب فرسه فقاتل راجلًا، ولم يتوانى في الافتداء بنفسه أبدًا، وهو ما زاد من حماس المسلمين وجرأتهم عل القتال.
وبدأت البشريات تتوالى فقد تمكن أحد المماليك من قتل زعيم التتار كتبغا وهي بلا شك ضربة قاصمة في صفوف الكافرين فقد تفرقوا بعده ولم يجدوا جدوى من استمرار القتال فتولوا يبحثون عن مخارج لهم للفرار واستماتوا في الدفاع عن ذلك ولكن صرخات القائد قطز

---

[87] قصة التتار (ص321).

علت مرة أخرى رافعة معها همم الرجال وقوتهم فأبادوا جيش التتار بأكمله ولم يبقوا من الذين حضروا تلك المعركة أحدًا وتم فضل الله عليهم في تلك الواقعة.

وهنا لنا أن نتساءل كيف لقائد مثل كتبغا الذي عاصر جنكيزخان وقضى أكثر من ثلاثين سنة في الحروب أن يقع في مثل هذه الخطة التي أعدها قطز؟

كيف لقائد مثل قطز بهذه الخطة التي تظهر بسيطة ومألوفة وبإعدادات أقلّ مما عليه جيش التتار أن يحقق هذا النصر الساحق؟

كيف للمسلمين بعد تلك المسيرة الطويلة من الضعف والهوان والذلّ أن يكونوا هذه القوة والشجاعة والصبر على الشدة والثبات؟

"يبقى التفسير الوحيد المقبول في مثل هذا الموقف هو أن تدبير رب العالمين سبحانه وتعالى، الذي يخرج عن القياسات العادية للبشر، ويدفع أشخاصًا بعينهم لأفعال معينة في ظروف معينة.. لو تكررت الظروف نفسها ألف مرة فلعل الرجل -كتبغا- لا يأخذ القرار نفسه أبدًا، ولكن الله عز وجل أراد لهذا الجيش التتري الهلكة على يد الجيش المسلم"[88]، غيرة منه سبحانه وتعالى على دينه و حفاظًا عليه بعد أن كان محوه من الأرض وشيكًا.

لم يكتف القائد قطز بهذا النصر لأنه يعلم أن بقية التتار في الشام لازالت تفرض سلطتها وقد كان حريصًا على عدم وصول خبر النصر إليهم حتى يباغتهم في أماكنهم، ولكنه راسل المسلمين يبشرهم بالنصر والعزة ويدعوهم للمشاركة فيما تبقى من مهام للقضاء على بقية التتار وكانت الفرحة بذلك شديدة.

وبعد خمسة أيام فقط من معركة "عين جالوت" كان قطز بين إخوانه في دمشق قد أحسنوا استقباله وأقاموا لذلك أفراحًا وحق لهم ذلك وزاد الجو بهجة حلول عيد الفطر المبارك فكانت بذلك أعيادًا وليس عيدًا واحدًا، بعد أربعين سنة من العذاب والمحنة.

استقر الأمن في البلاد وراح الجيش المسلم يطهر المدن من بقايا التتار فلا يبقي منهم أحدًا لئلا تسول لأحدهم نفسه أن يعيد بناء ما خلفه من قبله، ولم تمض عدة أسابيع حتى خلت الشام بأكملها من القوة الوحشية التي كانت تسيطر عليها قبل حين وأذن الله بالفرج، ووحّد قطز مصر والشام بعد عشر سنوات من الفرقة وأحسن الحكم فيها حتى عمت الخيرات واستقر الأمن وقويت شوكة المسلمين وعادت أيام عزّهم، وهذا تالله لهو نعيم من الله سخره لعباده لما صبروا وجاهدوا وثبتوا،

---

[88] قصة التتار (ص323).

وإنه لدرس عظيم لشعوب الإسلام في زماننا الحالي الذين رضوا بالخنوع والخضوع وأسلموا رقابهم لعدوهم منتظرين النصر من الله وهم على أسوأ ما كانوا حالًا، يمنّون أنفسهم بالغنائم دون التعب والجهد.

أفلا يعتبر أولوا الألباب من هذه العاصفة الشديدة التي واجهت الإسلام ثمّ ما لبثت أن اندثرت بعد أن توكل المسلمون على ربهم وأخذوا بأسباب النصر فلم يخيب الله ظنهم وأعز دينه ونصر جنده وغلب الأحزاب وحده جل في علاه؟!

آثار النصر: كان النصر على التتار نعم الفرصة ليراجع المسلمون أنفسهم وليجددوا عهدهم بأمور كادوا يفقدوها خلال الحرب منها:

- الوحدة والاجتماع وما أدراك ما هما؟!
- التغلب على موجة اليأس والإحباط التي اجتاحت الشعب المسلم بعد تخاذل قائديه وملوكه.
- العودة لفريضة الجهاد وجعلها من الأساسيات في الدولة واستعداد الناس لتطبيقها في أي وقت.
- تأسيس مفهوم القدوة الحسنة الذي تجلى واضحًا في اتباع جيش مصر لقدوتهم قطز وهدم صورة القدوة السيئة التي أظهرها ملوك الشام لما تخلوا عن مدنهم بكل ذل ودون دفاع.
- ترسيخ عقيدة "النصر للحق مهما طال ارتفاع الباطل عليه"، وقد كانت شبه منعدمة عندهم في تلك الظروف حتى ظنوا أن لا قوة ستهزم التتار أبدًا.

وغير ذلك الكثير مما تجدونه مسطرًا بين طيات المطولات من الكتب، ومنه ما لا تقدر الأقلام على حياكته بل هو يُحَسُّ ويُشعر به حال عيش الموقف، فنسأل الله أن يمنّ علينا بنصر مؤزّر على العدوّ الذي تسلّط علينا حتى نرى من أمر المسلمين ما رأوه بعد نصرهم في معركة جالوت من الفرح والعزة.

لو قدر للمغول أن ينتصروا في موقعة ((عين جالوت)) لانسابوا في مصر كالسيل الجارف ولامتدت موجتهم إلى السودان وبلاد المغرب وعبرت إلى الأندلس واجتاحت أوربا وقضت على الحضارة الإسلامية والمسيحية على السواء لذلك تعتبر هذه الموقعة من أهم المواقع الفاصلة في التاريخ لأنها أنقذت العالم الإسلامي من شر مستطير وأطفأت هذه الصاعقة المهلكة التي كادت أن تقضي على حضارة العالم ومدنيته.

علاقة المغول بالمماليك بعد موقعة عين جالوت: كانت علاقة المغول بالمماليك بعد موقعة عين جالوت عدائية تارة وودية تارة أخرى وكان أشد خطر هددت به مصر من جانب المغول في عهد سلطانهم تيمور لنك الذي نظم جموع المغول واتجه على رأسها نحو الغرب وأعاد سيطرة المغول على بغداد 795 ه.

وفي 803 ه انقض على بلاد الشام انقضاض الصاعقة واستباح مدينة حلب ثلاثة أيام وقتل من سكانها نحو عشرين ألفًا وخرّب مساجدها ثم اجتاح مدن حماه وحمص وبعلبك وعاث فيها فسادًا.

وصلت أخبار هذه الطائفة المغولية المدمرة إلى القاهرة فخرج السلطان الناصر فرج بن برقوق منها على رأس جيشه متجهًا نحو الشام ووصل إلى دمشق في جمادى الأولى من السنة نفسها واشتبك الجيش الإسلامي مع جيش المغول في معارك حزئية ثبت فيها الجيش الإسلامي أمام هجمات المغول الشديدة وبرهن على مقدرته الحربية.

ثم بدأت مفاروضات الصلح بين الطرفين غير أن السلطان فرج اضطر إلى مغادرة الشام لإحباط مؤامرة في مصر دبرت لخلعه فرأى علماء دمشق وفقهاؤها ومعهم ابن خلدون المؤرخ العربي المشهور رأوا أنه لامناص من التماس الأمان والصلح مع تيمور لنك فتظاهر بإجابة ملتمسهم ولكنه غدر بهم وأسلم المدينة للنيران[89].

وبعد أن عاد الناصر فرج إلى القاهرة أرسل رسالة شديدة اللهجة إلى إلى تيمور لنك يخبره فيها أنه عائد إلى الشام ليطرده منها وأنه لم يترك الميدان خوفا منه ولا ضعفا عن منازلته ولكن أمورا داخلية اضطرته إلى الرجوع إلى عاصمة ملكه وأنه سوف يعود إلى ميدان القتال بمجرد انتهاء مهمته في القاهرة.

وقد أشعلت هذه الرسالة نار الحقد في نفس تيمور لنك فصمم على الانتقام.

ولكنه غادر الشام قبل أن ينفذ ما صمم عليه، ولا يستبعد المستشرق الألماني ((بروكلمان)) أن يكون تيمورلنك قد تذكر بطولة جيش مصر في مقاومة جيش هولاكو وسحقه فأراد أن لا يعرض جيشه لما تعرض له جيش المغول على عهد هولاكو[90].

وقبل أن يغادر تيمورلنك دمشق نقل صفوة علمائها ونخبة من صناعها وأهل الفن فيها إلى عاصمته ((سمرقند)) فبدأت الصناعات الدقيقة

---

[89] عجائب المقدور في أخبار تيمور، لابن عرب شاه: (ص102، وما يليها).

[90] تاريخ الشعوب الإسلامية، الترجمة العربية، لبروكلمان: (3 /30).

والفنون الجميلة تزدهر هناك وانحطت الصناعة في دمشق، وندرت الفنون الجميلة.

ولم يقدر لتيمورلنك أن يعود إلى بلاد الشام مرة أخرى فقد أمضى العامين التاليين في غزو آسيا الصغرى وتمكن من هزيمة السلطان العثماني بايزيد الأول وأسره وشغل بذلك عن مهاجمة الشام، ولم تمهله المنية حتى يحقق هذه الأمنية حيث توفي سنة 807 ه وبعد موته ضعف جانب المغول ولم يعد يخشى على البلاد الإسلامية منهم، بل هدى الله سبحانه وتعالى الأجيال التالية منهم إلى الإسلام وجعلهم أنصارًا له.

{وَيَأْبَى اللَّهُ إِلا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}[91].

استمر الغزو المغولي التتري على العالم الإسلامي ١٥٠ سنة (٦٥٦-٨٠٣)، وكان عنيفًا دمويًّا متوحشًا، ومع ذلك استفاقت الأمة ولملمت جراحها وغزت أوربا بقوة بعد ذلك بفترة وجيزة.

رغم أن المسلمين كانوا يعانون عاصفة قويّة مزلزلة، كانت موجودة بالتوازي مع هذه العاصفة، وما كانت بالتي تقل خطورة عن التتار، لقد كانت عاصفة طويلة المدى، كلا لم تكن عاصفة واحدة بل كانت موجات من العواصف، بدأ بعضها قبل ذلك بكثير، واستمرت بعد ذلك بقليل، وهي الحروب الصليبية، التي امتدت طوال القرنين السادس والسابع الهجريين تقريبًا، فبقيت تهدّد عالم الإسلام مدّة مئتي سنة، وحول هذا الخطر العظيم نتحدث في الصفحات التالية.

---

[91] كيف نجا المسلمون من عاصفة المغول والتتار المدمِّرة؟، مقالة بقلم جاد محمد رمضان، نشرت في ديوان العرب الأحد ٢١ أيار (مايو) ٢٠٠٦.

(9)
الحروب الصليبية

تلك الحروب الشرسة القاسية التي ضربت أراضي الإسلام وشعوبها بعنف وشدّة تعبّر عن حجم الكراهية التي تحملها قلوب هؤلاء الصليبيين للإسلام وأهله في كل زمان ومكان.

إنها الحروب الجشعة الطمعة التي ما حرّكها ودفعها إلا الطمع في خيرات المسلمين وما أنتجته جهودهم فتقدّمت بهم الحياة وازدهرت بهم الحضارة وارتفعوا لريادة العالم كله عن جدارة.

إنها الحروب التي تخفّت في ثياب الدّين وخرجت تحت دعوى استرداد الأراضي المقدّسة، والدين والقدس منها براء، فلم يكن لها من اسم الحروب الصليبيّة – وقد أراده من أطلقه أن يضفي عليها صفات النبل ويوحي بأنها كانت تهدف إلى غايات سامية– نصيب، بل ما كانت إلا حركات إجراميّة ظالمة، غايتها التخريب والدّمار وهدفها السلب والنهب.

ويكفي للدلالة على هذا النظر في السلوك الغوغائي لأفرادها ومجموعها؛ فإنه لم يسلم منهم شيء حتى القسطنطينيّة عاصمة حكمهم، لقد دمّروها مرّتين!

بل إنّ الحملة الصليبيّة الرابعة التي دعا إليها البابا إينوقنتيوس الثالث في 1202م كانت موجهة إلى مصر, لضرب القوة الإسلامية الكبري في المنطقة ثم شن الحرب منها باتجاه القدس، لكن البندقيين الذين تولوا أمر توجيه وتوفير وسائل النقل والغذاء للحملة مقابل 85 ألف مارك ذهبي، اثّروا في مسار الحملة ووجهوها إلى القسطنطينية عمدًا؛ لأن الصليبيين لم يوفروا المبلغ المتفق عليه!

وأسفرت الحملة عن تخريب وتدمير القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ومركز الثقافة الإغريقية، ولم تتخذ البابوية إجراءات فعلية تجاه هذا الحدث، وكانت تلك الحملة تمثل انحطاط الحملات الصليبية التي أصبحت فيما بعد بحاجة إلى تبرير مقنع، بعدما كانت أمرًا إلهيًّا باسم الكنيسة!

إنها الحروب التي نعاني من الآثار الناجمة عنها إلى اليوم، ولم يعرف لعاصفة – بعد الفتنة بين الصحابة – هذه الأضرار التي نتجت عن عاصفة الحروب الصليبية في العالم الإسلامي، "ومن أبرز الآثار المباشرة لهذه الحروب هو توقّف المدّ الحضاري الإسلامي العظيم، الذي كان في أوج عظمته، وأبلغ مظاهره، حتى جاء الصليبيون فشغلوا طاقات الأمة وجهودها في حروبهم، وبالتالي استنزفت كل

الطاقات، وتبدَّدت كلّ الجهود، ووقفت المسيرة الخالدة التي حمل المسلمون رايتها عدة قرون متتالية.
ثم إنه من الناحية الأخرى - وبعد هذه الحروب الصليبية الشرسة - أخذ الصليبيون التراث العلمي الإسلامي العظيم من بلاد المسلمين، وخاصةً الأندلس وصقليّة، وأحيانًا من بلاد الشام، ثم بدءوا بشغفٍ واهتمام يترجمونه ويعكفون على دراسته وتطبيقه، وكان هذا - لا شكَّ - نواةً للحضارة الأوربية التي قامت في القرن الخامس عشر وما بعده.
فكما نرى، فإن هذا تغيرٌ محوري في مسيرة البشرية، قاد أمة إلى تخلفٍ وانحدار، وقاد أمة أخرى إلى علوٍّ وازدهار.
نَعَمْ ليس هذا هو العامل الوحيد لهذه الأزمة التي مرت بها الأمة الإسلامية، ولكن لا شكَّ أنه من أهمِّ العوامل"[92].
إنها حروب التدمير والتخريب والإفساد التي تستمر إلى يومنا هذا ومخطئ من يظن خلاف ذلك فيقول إنها انقطعت أو انتهى زمانها.

فما قصة هذه الحروب؟

بدأت الحروب الصليبية من نهايات القرن الخامس الهجري وحتى نهايات القرن السابع الهجري، فامتدت بذلك أكثر من مائتي سنة؛ من نهاية القرن الحادي عشر إلى نهاية القرن الثالث عشر الميلادي.
ومن الباحثين من يضمّ إلى هذه الفترة الحملات الصليبيّة التي بدأت قبل ذلك بثلاثة قرون في بلاد الأندلس، وجرت في نهاياتها محاكم التفتيش، فتكون مدة هذه الحروب الصليبيّة خمسة قرون لا قرنين فقط من الزمان.

كيف بدأت تلك الحروب على الشرق الإسلامي؟

في الفترة من سنة (480 ه - 1088م) إلى سنة (492 ه - 1099م)، تولى الكرسي البابوي في روما رجل يدعى أوربان الثاني، وكان أوربان هذا يُكِنُّ حقدًا كبيرًا على المسلمين، ومن ثمّ اتخذ قرار الحروب الصليبية على المشرق الإسلامي[93]، لقد كان يطمع – إضافة إلى شفاء أحقاده تلك- في توحيد الكنيستين الشرقيّة والغربيّة، لم تكن الأطماع قاصرة على الأمراء والشعوب إذًا، بل امتدت إلى رجال الدّين حتى رأسهم إن لم يكونوا هم أولهم في ذلك!
خطب البابا يحث النصارى على ضرورة التوجه إلى فلسطين، وكان في خطبته يحدثهم باسم الرب، ويعدهم بالغفران لكل ذنب وبالثراء

---

[92] انظر: قصة الحروب الصليبية، راغب السرجاني: (ص8).
[93] الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، محمد مؤنس: (ص63، 65).

الواسع من خيرات بلاد المسلمين، كما أخذ البابا يحفّز النصارى الغربيين ضد المسلمين – ويسميهم كفارًا ووثنيين- متحدثًا أنهم يبطشون بالحجاج المسيحيين القاصدين إلى الأراضي المقدّسة ويستغيثهم لنجدة النصارى الشرقيين الذين يعانون من ظلم وبطش المسلمين، كلّ ذلك يكذب البابا ويخترع الزور!

وفي هذه الخطبة أعلن البابا أنّه على كل من قرَّر الخروج إلى هذه الحملة أن يحيك صليبًا من قماش أحمر ليضعه على كتفه؛ إشارةً إلى دينيَّة الحملة، ونبل المقصد، وهو من جملة الزور والبهتان كما قلنا.

وقد حرّك ذلك من المسيحيين الغرائز والعواطف معًا وبدأت التجهيزات لحملة صليبيّة على العالم الإسلامي، بل حملات، فقد امتدّت الحركة كما قلنا مئتي سنة وجرت خلالها بين سبع وثماني حملات صليبيّة رئيسيّة على عالم الإسلام، وهناك حملات أخرى كثيرة ولكنها غير رئيسيّة إذ لم تكن بحجم الحملات الثماني المعدودة.

كانت الدوافع التي حملت الصليبيين على الخروج إلى بلاد المسلمين، تتمثل فيما يلي:

- أسباب دينية، كقيام أوربان هذا ومعه بطرس الفاجر – الذي يسمى الناسك - بالتحريض على غزو بلاد المسلمين، والحقد على حضارة الإسلام، والخوف من تنامي قوة المسلمين.
- أسباب سياسيّة، كرغبة الأمراء والملوك في التوسع وامتلاك البلاد الإسلاميّة، حتى أنهم كانوا يتقاسمون البلاد الإسلامية قبل امتلاكها.
- أسباب اقتصاديّة، ولهذا خرج فيها كثير من الفقراء والمطحونين الذين أصابتهم المجاعات وضربت بهم الظروف الاقتصادية في أوروبا.

تحركت الجحافل الأوربية تغذها تلك الدوافع تنشد نشيد الخلاص، قائلة:

أماه لا تقلقي..
أماه لا تحزني..
أنا ذاهب إلى طرابلس..
فرحًا مسرورًا..
لأبذل دمي..
في سبيل سحق الأمة الملعونة!!
ولأُحارب الديانة الإسلامية!!
سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن!!

وكلمات هذا النشيد تظهر ما في قلوب هؤلاء الغازين من نار الحقد أضعاف ما في أيديهم من نار السلاح.
ولقد كان الصليبيون يضربون البلاد الإسلاميّة من الخارج ويساعدهم في تحقيق أغراضهم الأرمن من الداخل، فمثلوا بهذا خنجرًا في ظهر المقاومة الإسلاميّة التي كانت تصد الغازين عن بلادهم قدر طاقتهم، على قلة الأعداد، وقلة العتاد، وذلك الضعف المستشري وقتئذ في بلاد الإسلام نتيجة ضعف الخلافة وذهاب هيبتها، وفرقة الدول الإسلامية عن بعضها، ووجود كثير من العداوات بينها.. إلخ الأسباب التي كانت ترجح الهزيمة على النصر، بل تجعل الهزيمة حتميّة في مثل هذا الوضع.
ولا بأس من إلقاء بعض الضوء على أولى هذه الحملات لنعرف سلوك وأهداف أصحابها ونقف على حقائقها من وقائعها:
خرجت أولى تلك الحملات الآثمة من فرنسا واخترقت ألمانيا، وهي تجمع في طريقها الأنصار والمتحمسين، وإن كان يبدو عليهم بوضوحٍ عدم الخبرة وانعدام التنظيم.
ثم عبرت هذه الجموع إلى الأراضي المجرية ثم البيزنطية، وفي هاتين المرحلتين الأخيرتين ظهرت بوضوح طبيعة هذه الحملات العدوانية؛ فقد نظرت هذه الجموع إلى أعدادها وقوتها، واسترجعت تاريخها في الحرمان والفاقة، فنسيت الهدف المعلن الذي خرجوا له، وهو نصرة المسيحيين الشرقيين، ومن ثَمَّ قرروا الهجوم على القرى والمدن الآمنة التي في الطريق، وكلها آهلة بالسكان النصارى الذين من المفترض أنهم جاءوا لنصرتهم!!
لقد كانت وصمة عار في تاريخ أوربا حيث بدأ السلب والنهب والاعتداء على الرجال والنساء وسرقة الأموال والديار!
دُهِش الإمبراطور البيزنطي من هذه الأعمال التي ارتكبت في دولته من هذه الجموع التي لا تفقه شيئًا لا في الدين ولا في السياسة ولا في الحرب؛ فانعدام الدين عندهم واضح لكونهم يقتلون إخوانهم النصارى دون أدنى مبرر، وانعدام السياسة واضح أيضًا لأنهم يفعلون ذلك في أراضي الدولة البيزنطية غير مقدرين القوة العسكرية الضخمة لهذه الدولة العتيدة، كما أنهم لا يفقهون شيئًا في القتال والنزال، كما هو واضح من أشكالهم وتنظيمهم وطريقة حربهم، ومع ذلك فإن الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين تذرَّع بالصبر، ولم يشأ أن يهاجم هذه الجموع فيفنيها؛ لأنه كان يريدها لحرب المسلمين، ومن ثَمَّ لم يتعرض لحملة والتر المفلس بسوء، وإن كان لم يأمنهم على

القسطنطينية؛ فأنزلهم خارج أسوارها لينتظروا بقية الحملات والجنود.. إن هذا الاستعراض لرحلة والتر المفلس أو بطرس الناسك يوضِّح لنا بجلاء طبيعة الحملات الصليبية، وأنها - وإن رفعت الصليب شعارًا - ما جاءت إلا للسلب والنهب والاستحواذ والتملُّك.

دخلت الجموع الصليبية إلى آسيا الصغرى، ولم يطيقوا الصبر حتى تأتي جيوشهم المحترفة، فقاموا بالإغارة على بعض القرى المسلمة، وقتلوا وسلبوا ونهبوا، وزادهم هذا إغراءً فتمادوا في الغيِّ، وهم لا يدركون أنهم أصبحوا على بُعد عدة كيلو مترات فقط من مدينة نيقية قاعدة السلطان قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش، سلطان السلاجقة في آسيا الصغرى آنذاك.

دبَّر السلطان قلج أرسلان مكيدة حربية، واستطاع الإيقاع بالجموع الساذجة في فخٍّ محكم، وحاصرت الجيوش السلجوقية جموع الصليبيين، ودارت معركة سريعة ظهر فيها الجهل الواضح لهذه الجموع الشعبية، لينطلق السلاجقة في قتل معظم هذه الجموع، حتى كادت تُباد عن آخرها، لولا أن الإمبراطور البيزنطي سمع بأنباء الكارثة، فأرسل سفنًا حربية وبعض الجنود البيزنطيين الذين استطاعوا إنقاذ ثلاثة آلاف صليبي فقط، بينما دُمِّر الباقي تمامًا في الكمين السلجوقي. وكان ممن قتل في هذا الصدام والتر المفلس، بينما نجا بطرس الناسك الذي كان في مقابلة مع الإمبراطور البيزنطي وقت وقوع الجموع الصليبية في الكمين السلجوقي.

كانت صدمة قاسية جدًّا للإمبراطور البيزنطي، وبطبيعة الحال لبطرس الناسك، واحتفظ الإمبراطور بالبقية الباقية من هذه الجموع وقائدهم بطرس الناسك في مدينة القسطنطينية؛ ليكونوا في انتظار الجيوش الصليبية المحترفة.

وهكذا كانت النهاية المأساوية لكل الحملات الشعبية، سواء على يد ملك المجر كولومان أو على يد السلاجقة المسلمين؛ ليدفع فقراء أوربا وفلاحوها ثمن الغرور الذي ملأ رجال دينهم وأمراءهم وإقطاعياتهم، وهكذا دومًا تدفع الشعوب المغلوبة على أمرها ثمن هوانها وذلتها!

وبينما كان الحال كذلك مع هذه الحملات الشعبية كان العمل يجري على قدم وساق في أوربا الغربية وخاصةً فرنسا؛ لتجميع الجيوش النظامية وبأعداد ضخمة لم تسبق في تاريخ أوربا، بل لعلها لم تسبق في تاريخ العالم أجمع!

جاءت الحملة الصليبيّة الأولى تضم خمسة جيوش من أنحاء فرنسا وإيطاليا، ولم تختلف تلك الجيوش النظامية عن حملة الرعاع السابقة

في شيء إذ كانت الأطماع هي المحرّك الأساسي للجميع، وليس أدل على ذلك من أن الجيش الصليبي حين وصل إلى شاطئ بحر مرمرة عند مدينة سليمبريا البيزنطية لم يستطع أن يتمالك نفسه أمام ثراء المدينة، فقام الجنود بسلب المدينة ونهبها وهذه قبل كلّ شيء مدينة مسيحية خالصة، فكيف سيكون فعلهم ببلاد المسلمين؟

ومن المهم الآن أن نذكر أن أقل تقدير للمقاتلين الرجال في هذه الحملة الهائلة كان ثلاثمائة ألف مقاتل، بينما يصطحبون معهم نساءهم وأطفالهم بأعداد ضخمة وصلت بالحملة إلى مليون إنسان! وقوم جاءوا معهم بسبعمائة ألف امرأة وطفل جاءوا ليستوطنوا لا ليحاربوا قومًا ثم يعودوا!

وفي الطريق إلى بيت المقدس سقطت مدن كثيرة جدًّا ودمرت تدميرًا، وأشد من ذلك الاستسلام المخزي الذي ظهر عليه بعض حكام المسلمين في كثير من هذه المدن، لقد كانوا يدخلون في طاعة الصليبيين، مؤثرين السلامة المزعومة، ولم يكتفوا بذلك بل نزلوا على شروط الصليبيين بتقديم العون والمساعدة لهم، ويا لله العجب!

ووصلت الحملة المجرمة إلى أبواب القدس، وتغلبت عليها بعد محاولات عدة، وبعد أن دخل الصليبيون القدس تملكتهم روح البطش والرغبة في سفك دماء العزل الأبرياء، فانطلقوا في شوارع المدينة يذبحون كل من يقابلهم من رجال ونساء وأطفال، ولم تسلم المنازل الآمنة من اعتداءاتهم الوحشية، واستمر ذلك طيلة اليوم الذي دخلوا فيه المدينة.

وفي صباح اليوم التالي استكمل الصليبيون الهمج مذابحهم فقتلوا المسلمين الذين احتموا بحرم المسجد الأقصى، وكان أحد قادة الحملة قد أمنهم على حياتهم، فلم يراعوا عهده معهم، فذبحوهم وكانوا سبعين ألفًا، منهم جماعة كبيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارقوا الأوطان وأقاموا في هذا الموضع الشريف.

روى ابن الأثير في تاريخه عن دخول الصليبين للقدس في الحروب الصليبية فقال: "مَلَك الفرنج القدس نهار يوم الجمعة، لسبع بقين من شعبان، وركب الناس السيف، ولبث الفرنج في البلدة أسبوعا يقتلون فيه المسلمين، واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود، فاعتصموا به، وقاتلوا فيه ثلاثة أيام، و قتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفا، منهم جماعة كبيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان و جاور بذلك الموضع الشريف"[94].

---

[94] الكامل في التاريخ، لابن الأثير: (8/190-189).

كما وصف ستيفن رنسيمان في كتابه "تاريخ الحروب الصليبية" ما حدث في القدس يوم دخلها الصليبيون فقال: "و في الصباح الباكر من اليوم التالي اقتحم باب المسجد ثلة من الصليبيين، فأجهزت على جميع اللاجئين اليه، وحينما توجه قائد القوة ريموند أجيل في الضحى لزيارة ساحة المعبد أخذ يتلمس طريقه بين الجثث والدماء التي بلغت ركبتيه، وتركت مذبحة بيت المقدس أثرًا عميقًا في جميع العالم، وليس معروفًا بالضبط عدد ضحاياها، غير أنها أدت إلى خلو المدينة من سكانها المسلمين واليهود؛ بل إن كثيراً من المسيحيين اشتد جزعهم لما حدث"[95].

وقد وصف كثير من المؤرخين أحداث المذبحة التي حدثت في القدس يوم دخول الصليبيين إليها، وكيف أنهم كانوا يزهون بأنفسهم؛ لأن رُكب خيولهم كانت تخوض في دماء المسلمين التي سالت في الشوارع، و قد كان من وسائل الترفيه لدى الصليبيين أن يشووا أطفال المسلمين كما تشوى النعاج.

ويذكر الكثيرون ماذا فعل ريتشارد قلب الأسد في الحملة الصليبية الثالثة - عند احتلاله لعكا - بأسرى المسلمين، فقد ذبح 2700 أسير من أسرى المسلمين الذين كانوا في حامية عكا، و قد لقيت زوجات وأطفال الأسرى مصرعهم إلى جوارهم.

فأيّ سلام يحمله هؤلاء؟ واي نبل كان يسوقهم؟ زعموا!

وذكر " غوستاف لوبون " في كتابه " الحضارة العربية" - نقلًا عن روايات رهبان ومؤرخين رافقوا الحملة الصليبية الحاقدة على القدس - ما حدث حين دخول الصليبيين للمدينة المقدسة من مجازر دموية لا تدل إلا على حقد أسود متأصل في نفوس ووجدان الصليبيين. قال الراهب "روبرت" أحد الصليبيين المتعصبين -وهو شاهد عيان لما حدث في بيت المقدس- واصفًا سلوك قومه ص325: "كان قومنا يجوبون الشوارع والميادين وسطوح البيوت ليرووا غليلهم من التقتيل، وذلك كاللبؤات التي خطفت صغارها !

كانوا يذبحون الأولاد والشباب، ويقطعونهم إربًا إربًا، وكانوا يشنقون أناسًا كثيرين بحبل واحد بغية السرعة، وكان قومنا يقبضون كل شيء يجدونه فيبقرون بطون الموتى ليخرجوا منها قطعًا ذهبية!

فيا للشره وحب الذهب، وكانت الدماء تسيل كالأنهار في طرق المدينة المغطاة بالجثث".

---

[95] تاريخ الحروب الصليبية، ستيفن رنسيمان: (406/404/1).

وقال كاهن أبوس "ريموند داجميل" شامتاً ص326-327: "حدث ما هو عجيب بين العرب عندما استولى قومنا على أسوار القدس وبروجها، فقد قطعت رءوس بعضهم، فكان هذا أقل ما يمكن أن يصيبهم، وبقرت بطون بعضهم؛ فكانوا يضطرون إلى القذف بأنفسهم من أعلى الأسوار، وحرق بعضهم في النار؛ فكان ذلك بعد عذاب طويل، وكان لا يرى في شوارع القدس وميادينها سوى أكداس من رءوس العرب وأيديهم وأرجلهم، فلا يمر المرء إلا على جثث قتلاهم، ولكن كل هذا لم يكن سوى بعض ما نالوا".

وقال واصفًا مذبحة مسجد عمر: لقد أفرط قومنا في سفك الدماء في هيكل سليمان، وكانت جثث القتلى تعوم في الساحة هنا وهناك، وكانت الأيدي المبتورة تسبح كأنها تريد أن تتصل بجثث غريبة عنها، ولم يكتف الفرسان الصليبيون الأتقياء (!) بذلك فعقدوا مؤتمرًا أجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس من المسلمين واليهود و خوارج النصارى - الذين كان عددهم ستين ألفًا - فأفنوهم عن بكرة أبيهم في ثمانية أيام، ولم يستبقوا منهم امرأة و لا ولدًا و لا شيخًا".

وفي ص396 يقول: "وعمل الصليبيون مثل ذلك في مدن المسلمين التي اجتاحوها: ففي المعرة قتلوا جميع من كان فيها من المسلمين اللاجئين في الجوامع و المختبئين في السراديب، فأهلكوا صبراً ما يزيد على مائة ألف إنسان - في أكثر الروايات - و كانت المعرة من أعظم مدن الشام بعدد السكان بعد أن فر إليها الناس بعد سقوط أنطاكية وغيرها بيد الصليبيين".

فأي إنسانية يتغنى بمثلها هؤلاء؟ هل فعلًا يديرون الخد الأيسر لمن يصفعهم على خدهم الأيمن ؟

تاريخهم يجيب عن ذلك !

ويعترف مؤرخو الحملات الصليبية ببشاعة السلوك البربري الذي أقدم عليه الصليبيون، فذكر مؤرخ صليبي ممن شهد هذه المذابح وهو **"ريموند أوف أجيل"**، أنه عندما توجه لزيارة ساحة المعبد غداة تلك المذبحة لم يستطع أن يشق طريقه وسط أشلاء القتلى إلا بصعوبة بالغة، وأن دماء القتلى بلغت ركبتيه.

وكتبوا إلى البابا يفتخرون بما فعلوا دون وازع من خلق أو رادع من دين، فما لامهم ولا استنكر فعلتهم!

واختار الصليبيون جودفري حاكمًا على المدينة المقدسة، وراحوا يتطلعون إلى المزيد من الصليبيين الجدد من أوروبا، وأقاموا بطريركية رومانية، وصبغوا البلد بالصبغة الكاثوليكية.

ولقد كان من مضارّ هذه الحملة المجرمة التي تثبت أنها عبارة عن حروب استدمارية انتهازية تخريبية جشعة ما غرضها إلا القضاء على أصحاب الأرض و سرقة ثرواتهم:

وأسفرت الحملة الأولى عن احتلال القدس عام 1099م، وقيام مملكة القدس اللاتينية، بالإضافة إلى سقوط مدينة نيقية، وإنطاكية، وطرابلس والرها، وتأسيس إمارات صليبية في الأراضي الإسلاميّة!

وهل تعلم أنه كان يمكن للفاطميين نجدة المدينة، وبدلًا من أن يفكروا في مساعدة أهلها اتصلوا بالصليبيين، وحاولوا التفاهم معهم على اقتسام الأرض والنفوذ على حساب الأتراك السلاجقة الذين كانوا يحكمون تلك المناطق؟!

وظلت مدينة بيت المقدس أسيرة 90 عامًا وقعت البلاد الإسلاميّة خلالها تحت وطأة حملة صليبية ثانية، حتى جاء صلاح الدين الأيوبي في (27 من رجب سنة 583ه = 29 من أكتوبر 1187 م)، فحررها من أسر الصليبيين، وكان سلوكه رحمه الله حين دخل المدينة فاتحًا يختلف تمامًا عما فعله الصليبيون من وحشية وسفك للدماء.

الأمر الذي دفع بالبابا غريغوريوس الثامن إلى الدعوة إلى حملة صليبية جديدة، فكانت الحملة الثالثة التي قامت بحصار عكا حتى استسلمت لهم.

وتتابعت الحملات لكل منها هدفها، ولنذكر الحملة الخامسة التي وصلت إلى دمياط في مصر واستولت عليها عام 1219م، وأكملوا زحفهم إلى المنصورة، لولا أن لطف الله ففاض النيل وفتح المصريون السد على النهر فغرق كثير من جنود الحملة وبذلك استطاعت القوات المسلمة السيطرة عليها وأسر قائدها لويس التاسع بدار ابن لقمان، وكان الملك الكامل قد توفّي تلك الليلة فأخفي خبر وفاته وكانت الأوضاع سيئة من جهات عدة، منها أخبار خطر المغول الذي كان يضرب العالم الإسلامي في ذلك الحين من جهة المشرق، كما سبق آنفًا.

ثم كانت الحملة السادسة التي قادها الإمبراطور فريدريك الثاني هوهنشتاوفن الألماني، وقد أسفرت عن تفاوض فريدريك مع السلطان الكامل تمّ على إثره صلح لمدة عشر سنوات تنازل بمقابله السلطان عن القدس باستثناء منطقة الحرم وبيت لحم والناصرة وقسم من دائرة صيدا وطورون!

وضاع ميراث صلاح الدين وجهاد المسلمين في كلّ تلك السنين!

ثم كانت الحملة السابعة بين عامي 1248 و1254م التي سيطرت على دمياط والمنصورة مرة ثانية، وطردهم المسلمون منها آخرًا بقيادة الملك المعظم طوران شاه.
وفي 1270م كانت الحملة الثامنة التي وجهت إلى تونس، وأسفرت عن احتلالها بعض مناطقها انتهت بتوقيع معاهدة صلح بين الطرفين ألزمت التونسيين بدفع جزية مضاعفة إلى الصليبيين، كما شملت حقوقا تجارية متبادلة!
ثم كانت بعد هذه الحملات الثمانية حملات أخرى صغيرة فرعية لم يكن لها أثر كبير وإن بقيت تهدد الشعوب الإسلاميّة وأراضيها حينًا من الدهر.
ما أشبه الماضي بالحاضر، "إننا اليوم أشد ما نكون حاجة إلى التأمل في تاريخ الحركة الصليبية ودراستها، لنستفيد من تلك التجربة الكبرى التي مرّت بها الأمة العربية منذ بضعة قرون، ونأخذ منها الدروس والعِظات، لنواجه أفدح خطر تعاني منه الأمة العربية اليوم، وهو خطر الاستعمار الصليبي الجديد المتمثّل في إسرائيل المزروعة في قلب العالم العربي، والتي تتشابه ظروف نجاحها، في تحقيق أهدافها داخل الوطن العربي، بظروف نجاح الصليبيين.
والتشابه كبير في أصول الحركتين، فقد بعث الحركة الصليبية رجال من مسيحيي أوروبا الوسطى والغربية، وكذلك فإن حركة الصهيونية بعثها رجال من يهود أوروبا الوسطى والغربية.
ولا يقتصر التشابه بين الحركة الصهيونية والحروب الصليبية ببعض الجزئيات إن صحّ هذا التعبير، بل يمكن القول إن التشابه يظهر في الظروف التي ساعدت كلاً من الطرفين في تحقيق أهدافهما.
فإذا كان السبب الأول الذي ساعد على نجاح الحملة الصليبية الأولى في تحقيق أهدافها، يقبع في تمزق العالم العربي في ذلك الوقت، وتوزّع قلوب حكامه، إضافة إلى الأوضاع السيئة التي كانت تحياها بلاد الشام تحت سلطة أُمراء متعددين لا يجمع بين قلوبهم جامع.
فالأسباب عينها كانت من العوامل التي ساعدت الصهاينة في تحقيق أهدافهم في فلسطين في العصور الحديثة"[96].
وبعد، هل انتهت الحروب الصليبيّة؟ يُذكر أن الجنرال غورو عندما دخل دمشق منتصراً بعد معركة ميسلون الشهيرة, زار قبر صلاح

[96] رؤية معاصرة للحملة الصليبية الأولى، منشور بمجلة الفكر الاستراتيجي العربي، العدد 2، (ص204) د. أمينة البيطار.

الدين الأيوبي وقال مخاطباً في تشف وانتقام: "ها قد عدنا يا صلاح الدين!".
كذلك فإن اللنبي حين دخل القدس عام 1917م قال كلمته المشهورة: "اليوم انتهت الحروب الصليبية"، وكان قد قال عن حملته تلك إنها حملة صليبية، أي إنها امتداد للحملات الصليبية السابقة!

الآثار والنتائج:

كانت آثار هذه الحملات الخطيرة جلية واضحة في المجتمع الإسلامي وعلى عدة جبهات، فعلى الصعيدين الديني ثم السياسي ترى المسلمين قد ضعفت شوكتهم وزادت فرقتهم وتشتت شملهم وضاع دينهم إلا من فئة قليلة صابرة ثابتة في وجه الطغاة، فالأمراء قد استسلموا راضخين وتبعهم الرعية جاهلين ولم يشفع لهم ذلك عند الصليبيين بل لاقوا نفس مصير البقية من ذبح وتنكيل بعد أن تيقنوا من ضعف الدولة.
أما على الصعيد الاجتماعي فلك أن تتخيل بقية شعوب قد حلت عليهم الكوارث بمثل ما ذكرنا سابقًا، فلا تجد بعدها إلا يتامى أو ثكالى أو جرحى.. أصناف من البؤس تصلح لإقامة المآتم لا لإقامة أمة.
ثم تدهور حاد على الصعيد الإقتصادي نتيجة السلب والنهب الذي مورس من الصليبيين وأيضًا نتيجة تعطل المبادلات والأعمال والتجارة بسبب الحروب.
على المستوى الفكري والثقافي كانت النتائج بين سلبية وإيجابية:
فأما الإيجابية فبظهور نخبة بارزة من المؤرخين الأفذاذ الذين سجلوا بين طيات كتبهم مثل هذه الوقائع حتى تبقى شاهدة على طغيان الصليبيين وخبث نواياهم ولا تسول لهم أنفسهم بطمس جرائمهم ومحاولة مواراتها، و نذكر منهم ابن عساكر (ت1176م) مؤلف تاريخ مدينة دمشق، وابن القلانسي (ت1160م) مؤلف ذيل تاريخ دمشق، وابن الأثير (ت 1232م) مؤلف كتاب الكامل في التاريخ، والتاريخ الباهر، والقاضي بهاء الدين ابن شداد (ت1234م) مؤلف سيرة صلاح الدين الأيوبي تحت عنوان النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية.
أما النتائج السلبية- والتي لها الوقع الأكبر والأثر الأعظم- فهي سرقة كنز عظيم من العلوم والاكتشافات والخبرات في شتّى المجالات، التي سجلها المسلمون عبر مرّ الأزمان، فوجدوا بذلك الخلاصة النقية التي ترجموها ثم وظفوها أحسن توظيف للرقي بحضارتهم، بينما طمسوا وحرقوا وأتلفوا الأصل فبدأت من وقتها حضارة المسلمين في الاندثار

وضاعت جهودهم وتقهقرت الأمة حتى نرى ما آلت إليه الأحوال اليوم والله المستعان.

إن الحملات الصليبيّة لم تنته في الحقيقة وإن انتهت في الظاهر، فقد تخلّص المسلمون من الحروب لكنهم لم يتخلّصوا من الأحقاد والمؤامرات والأفخاخ، ولئن نعم المسلمون بعض الوقت في هدوء وراحة من قبل المهاجمين الصليبيين ومضت على ذلك مدة، فلقد كانت التدابير في الغرب تعمل على قدم وساق للعودة من جديد لإشباع أطماعهم وشفاء غلّهم، ومن ثمّ كانت محنة جديدة شديدة نزلت بديار الإسلام، وكان لها فيه أثر بالغ هو أضرّ من أثار هذه الحروب الصليبيّة، يقول جيمس واترسون: "مخطئ من يعتقد أن الحروب الصليبية ليس لها علاقة بالأحداث التي تجري اليوم في العالم العربي والإسلامي، إنها وثيقة الصلة بها إن لم تكن بسببها أوامتدادًا لها"[97].

كانت عاصفة شديدة قوية هي عاصفة الاستعمار، وهو ما نقف عليه في الصفحات التالية:

(10)

الاستخراب

لكلّ حضارة في العالم خصائص تميزها وتستمد منها هويتها وأسس بنائها، وقد تميزت الحضارة الإسلامية على مر العصور بدينها الذي جاء عامة للناس الفقير منهم والغني، الأمي منهم والمتعلم، الصغير والكبير، الرجال والنساء، شاملًا كاملًا خاتمًا للرسالات من قبله، متمِّمًا للناس الشريعة والأحكام، منظمًا سبل معايشهم وطرق التعامل بينهم.

ولمّا رأى أعداء هذا الدين وقعه على المجتمع وسرعة انتشاره وتأثر الناس به، خاصة إذا عرفوا ما يقوم عليه من الأخلاق وأسس العدل والمساواة وغيرها من القيم والمبادئ التي يبحث عنها كل عاقل على الفطرة السليمة، ثم شاهدوا عيانًا توسع الخيرات والنفوذ ونزول البركات عليهم باتباعهم أحكام الشرع وابتعادهم عن همجية الجاهلية، توجهوا إلى محاربته بشتى الوسائل وعلى جميع الجبهات ليشوهوه وينالوا منه وينتقصوا من شأنه ولو تمكنوا لمحوه من الأرض محوًا، ولكن للدين رب يحميه فكلما تجمعوا ومكروا وخادعوا وهموا بضربه خرج منها راسخًا شامخًا على محياه ابتسامة سخرية يكيد بها مبغضيه، وترى الناس بعد هجماتهم قد زادت إقبالًا عليه ودخولًا فيه.

---

[97] سيوف مقدسة (ص13)

كان من الأساليب التي اعتمدتها الدول الكافرة للوصول إلى هدفها: الغزو العسكري بالقوة والسلاح والذي أطلق عليه زورًا وكذبًا اسم الاستعمار، وما هو في الحقيقة إلا استخراب واستنزاف واستدمار.

عُرِّف الاستعمار بأنه ظاهرة تهدف إلى سيطرة دولة قوية على دولة ضعيفة من أجل بسط نفوذها لاستغلال خيراتها في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وهو بالتالي يعتبر نهبًا وسلبًا لمعظم ثروات البلاد المستعمرة مع تحطيم كرامة الشعوب وتدمير تراثها الديني الحضاري والثقافي، وكذلك فرض ثقافة الدولة المستعمرة.

ارتبطت ظاهرة الاستعمار بالثورة الأوربية وعصر الاستكشاف، وقد ظهرت أول حركة استعمارية في بداية القرن الخامس عشر الميلادي تحديدًا بتأسيس المستعمرة البرتغالية سنة 1415 ه ثم توسعت بشكل كبير في القرنين الثامن والتاسع عشر.

وقد كانت أبرز القوى الاستعمارية التي عانى منها العالم الإسلامي في هذين القرنين هما بريطانيا وفرنسا ثم نرى تقدم الولايات المتحدة الأمريكية إلى يومنا هذا وظهور الصهاينة في مضمار السباق، وهم رغم تنافسهم قد تآمروا على المسلمين وتوحدوا ضدهم وكثفوا الجهود لتمزيقهم واقتسامهم، وما ذاك إلا مصداقًا لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها»، فقال قائل: ومِن قلة نحن يومئذ؟ قال: «بل أنتم يومئذٍ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن»، فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: «حب الدنيا، وكراهية الموت»[98].

أسباب ظهور الاستعمار: إذا نظرنا إلى "الظروف التي ساعدت على نشأة هذه الحركة وجدناها كثيرة ومفصلة، وأهمها بالذكر هنا:

- الثورة الصناعية التي نهضت بالقارة الأوروبية بعد قرون طويلة من الرجعية والتبعية للأمم الأخرى.

- الرغبة في إرجاع الأمجاد القديمة لدى الشعوب والقادة الأوروبيين لتحقيق أمجاد قومية، ولتقليص العدد الهائل من السكان الذي تزايد بشكل سريع بسبب إيجاد علاجات لأغلب الأمراض التي كانت تقتل الناس في تلك الفترات.

- تراجع الدور الريادي للعالم الإسلامي بعد أن أدّت الاكتشافات الجغرافية للأوروبيين لثراء فاحش بسبب اكتشاف الكثير من الموارد

(98) أخرجه أحمد ()، وأبو داود ().

الطبيعية والمعادن النفيسة، وهو ما أدى لاختلال كبير في التوازن بين العالم الإسلامي والعالم الغربي.
- تراجع سلطة رجال الدين – عندهم - الذين كانوا يسيطرون على الحياة السياسية والاقتصادية وكان لا يهمهم إلا مصالحهم الشخصية.
- حاجة الشعوب والدول للمواد الأولية لتلبية التزايدات الضخمة جدًّا في الصناعات المختلفة الحديثة، وللبحث عن أسواق خارجية يتم تصريف هذه الصناعات فيها ولزيادة واستثمار رؤوس الأموال، وكانت الوسيلة الوحيدة للسيطرة على موارد الشعوب الأخرى.
- تدمير الثقافات واللغات الأخرى ونشر اللغات الأوروبية والدين المسيحي بين الشعوب.
- الجوانب العسكرية كان لها أهمية كبيرة أيضًا بالنسبة للحركة الاستعمارية، فاتجهت القوى الكبرى الصاعدة لإنشاء القواعد العسكرية لتأمين سفنها وطرق مواصلاتها فأخذت تلك الدول باحتلال المناطق الاستراتيجية وخاصة التي تتحوي على مضائق بحرية مثل منطقة جبل طارق الفاصل بين المغرب وإسبانيا وجزيرتي قبرص ومالطا، وقناة السويس في مصر، وخليج عدن في اليمن"[99].
لقد كان لهذا الاستعمار في الدول الاسلامية أثر كبير في علاقة الناس بالدين فقد ضيقوا عليهم وتفانوا في تعذيبهم ثم قاموا بتجفيف منابع العلم والتدين الصحيح بقتل رجال الدين أو سجنهم، وكان "جماهير المسلمين تحت ضغط الاستعمار الصليبي العاتي تتفاوت معادنهم في تلقي أوصابه وتحمل فتنه، فمنهم من زادته البأساء قوة يقين، ونفخ الاضطهاد في روحه كما تنفخ الرياح في الجمر المتقد، لا تزيده إلا لهبًا، أولئك ولله الحمد كثير، ومنهم من أصابه الوهن وأخذت شكيمته تنكسر تحت اللطمات التي تناولته من كلّ جهة، ومنهم من رأى الابتعاد عن الإسلام، إن ظاهرًا وإن باطنًا، يحسب أن هذا الابتعاد قد يخفف البلاء النازل به.." [100].
ولنا في هذا المقام أن ننقل بعض ممارسات أهل الكفر على أقوام مسلمين لنكشف الغطاء عن وحشية الاستعمار الذي يستتر بالمصالحات والتفاوضات والحماية وغيرها من التبريرات الساذجة التي تبيح له اختراق أي مجال يريده، ولإثبات أن الهدف الأكبر هو التخلص من الإسلام زيادة على الأهداف الأخرى كاستغلال الثروات واحتلال الأرض:

---

[99] تعريف الحركة الإسلامية، محمد جوارنه: ().
[100] الاستعمار أحقاد وأطماع للشيخ محمد الغزالي: ().

- كتب القس "سوشيه" -الوكيل العام لأسقف الجزائر حين وقع عليها الاستعمار الفرنسي- كتابًا أسماه:" رسائل مفيدة ومشوقة عن الجزائر" وجه فيه الكلام إلى العاهل الفرنسي فقال: "إن مسيو فاليه رجل عميق التفكير، ذو ضمير حي، لا تنقصه الحيلة، إنه يحكم الجزائر كأكثر الملوك إطلاقًا في الحكم، إنه الرجل الذي ليس لهذه المستعمرة غنى عنه، إنه يرغب أن يستتب الدين المسيحي وأن يحترمه الجميع، إنه يريد أن يضاعف عدد الصلبان والكنائس في الجزائر، إن مولاي يستطيع أن يفعل ما يشاء مع رجل مثل مسيو فاليه الذي اختار أجمل مسجد في قسطنطينة ليجعل منه أجمل كنيسة في المستعمرة..".

وقد علق الأديبان الفرنسيان "كوليت وفرانسيس جانسون" على هذه الأحداث فكتبا: لعل العبث بالدين الإسلامي هو المجال المفضل لدى القائد روفيجو فقد وقف هذا القائد الفاجر ونادى في قومه: إنه يلزمه أجمل مسجد في المدينة ليجعل منه معبدًا لإله المسيحيين، وطلب إعداده في أقصر وقت ممكن.

لعل تنفيذ القائد روفيجو كان بأمر من الحاكم فاليه المذكور بالرسالة الأولى.

وخطب سكرتير الحاكم بوجود حاكم لأحد المستعمرات الفرنسية في الجزائر قائلًا:"إن آخر أيام الإسلام قد دنت، وفي خلال عشرين عامًا لن يكون للجزائر إله غير المسيح، ونحن إذا أمكننا الشك في أن هذه الأرض تملكها فرنسا، فلا يمكننا أن نشك على أي حال أنها قد ضاعت من الإسلام إلى الأبد، أما العرب فلن يكونوا ملكًا لفرنسا إلا إذا أصبحوا مسيحيين جميعًا".

أهداف واضحة، خطط مسطرة، ومواعيد مضبوطة يرسمها الاستعمار لمحو الدين واستبداله بما يناسبهم، فلا يظنن عاقل أنهم يسعون إلى نشر دين المسيحية الصحيح وإنما هو دين الصليبية الذي يدينون به والذي يطابق مصالحهم أينما حلت ودارت.

- هذه شهادة أخرى من مجاهد صومالي يقول:" جمعتني الصدفة يومًا في غرفة واحدة في قطار أديس أبابا - جيبوتي مع ضابط حبشي من ضباط الحدود، فحدثني كثيرًا عن مغامراته مع القبائل الصومالية في "أوجادين"، وكان يظنني مسيحيًّا مثله مما جعله يرفع الكلفة بيننا ويطلق العنان للسانه مطريًا رجال الحدود بعظائم أعمالهم الوحشية، وقال: إن الصوماليين قوم شديدو المراس، متهورون في شجاعتهم ولديهم الكثير من الأسلحة النارية الحديثة التي نالوها من الإيطاليين

ممـــا جعـــل كســـر شـــوكتهم مغـــامرة خطيـــرة علـــى رجـــال الحـــدود الـــذين ينتصـــرون علـــيهم أحيانًـــا بشـــق الأنفـــس، بالحيـــل والخـــداع تـــارة والأطمـــاع والتســـاهل تـــارة أخـــرى، وبـــالقوة واســـتعمال الأســـلح الفتاكـــة أحيانًـــا كثيـــرة، فتقتـــل إبلهـــم ومواشـــيهم التـــي هـــي عمـــاد حيـــاتهم كـــي يستســـلموا ولكـــنهم لا يستســـلمون، وأحيانًـــا تحـــرق بيـــوتهم وتـــدمر مســـاجدهم بالمـــدافع فيستســـلم بعض منهم عندما تضيق عليهم الحياة.

فقلـــت لـــه متصـــنعًا العجـــب مـــن أعمالـــه البطوليـــة: لمـــاذا تبـــذل حكومتنـــا النفس والنفيس في مقاتلة هؤلاء الصوماليين؟

فأجـــاب القائـــد بغـــرور ظـــاهر قـــائلًا: إن مـــا تنفقـــه الحكومـــة مـــن الأمـــوال الطائلـــة ومـــا تبذلـــه مـــن نفـــوس جنودهـــا راضـــية فـــي قتـــال الصـــوماليين لا يســـاوي شـــيئًا بجانـــب اســـتيلائنا عـــل هـــذا البلـــد الـــذي اكتشـــف فيـــه كتـــوز مـــن البتـــرول والـــذهب والحديـــد والكبريـــت والملـــح الجبلـــي الـــذي ســـيدر أرباحًـــا طائلة على الدولة عندما يتم استغلاله[101].

ونظـــرة واحـــدة إلـــى حـــال الصـــومال فـــي زماننـــا هـــذا تغنيـــك عـــن كـــل الكـــلام الـــذي ســـأكتبه, فهـــا هـــو شـــعبها قـــد تنصّـــر إلا أقليـــات بقيـــت صـــامدة علـــى الإســـلام، وهـــا هـــو يعـــاني الفقـــر بـــل الفقـــر المـــدقع والأعـــداء يتمتعـــون بخيراته وثرواته وحسبنا الله ونعم الوكيل.

- نقـــل "جـــاك تيلـــور" -وهـــو اســـم مســـتعار لكاتـــب أمريكـــي وضـــابط اتصـــال خـــارجي- فـــي كتابـــه "أوراق الموســـاد المفقـــودة" بعـــض الخطـــط التـــي وضـــعها الموســـاد -جهـــاز المخـــابرات الإســـرائيلي- للســـيطرة وبســـط النفـــوذ في الأراضي الإسلامية، وهذا بعض ما جاء فها:

- الطريقـــة الفعالـــة الوحيـــدة للحصـــول علـــى منـــاطق وأراض جديـــدة هـــي احتلالهـــا، وترحيـــل أغلـــب ســـكانها عنهـــا وتـــدمير قـــراهم ثـــم بنـــاء مستوطنات جديدة لتوطين اليهود وحدهم فيها.

-منـــذ بدايـــة تأســـيس وطننـــا القـــومي كـــان هنـــاك أمامنـــا هـــدفان: الاســـتيلاء علـــى أرضـــنا التاريخيـــة وتـــوفير اليـــد العاملـــة اللازمـــة لبنائهـــا، وعنـــدما يـــتم ذلـــك فســـوف نكـــون قـــادرين علـــى اســـتقبال جميـــع اليهـــود مـــن شـــتى بـــلاد العالم وتوطينهم في هذه الأرض التي وعدنا الرب **"جيهوفا"** بها.

- إذا اســـتطاعت الـــدول العربيـــة أن تتغلـــب علـــى خلافاتهـــا فيمـــا بينهـــا فســـتكون إســـرائيل فـــي محنـــة وخطـــر كبيـــرين، ومـــن ثـــم فإنـــه يجـــب علينـــا أن نحـــرص بـــأن تبقـــى النزاعـــات العربيـــة الداخليـــة مســـتمرة ونـــار الخلافـــات مشتعلة.

---

(101) الاستعمار أحقاد وأطماع للشيخ محمد الغزالي: ().

- من وجهة نظرنا سيكون هناك عداء مستفحل وواضح بين العراق وإيران أو السعودية والكويت، والأردن والفلسطينيين، أو لبنان وسوريا، ولكن نحن من جانبنا لا نود أن نورّط أنفسنا في هذه الصراعات، وهذا لا يعني أننا لن نستعدي أحد طرفي النزاع ضد الآخر[102].

هذا غيض من فيض مما جاء في هذه الأوراق، ورغم تباين وجهات النظر حول صحتها ونسبتها فعلًا لجهاز المخابرات الإسرائيلي فإن الأحداث الواقعة تؤكد كل كلمة جاءت فيها وتكشف للشعوب الإسلامية الدسائس التي تكاد لها في الخفاء.

وتتلخص خطط المستعمرين نحو استغلال الشعوب الاسلامية وإبعادها عن الدين في النقاط التالية:

1) حرمان المسلمين من التعليم العام وعزلهم وراء سجن من القصور العقلي ومنعهم من المشاركة في بناء المجتمع وترقية العمران، كما أعلن الغزاة حربًا على التعليم الإسلامي الخاص الذي كانت تقدمه مكاتب تحفيظ القرآن، وبذلك يشب المسلمون بعداء عن كتاب ربهم وعن لغة الوحي الأعلى ويفقدون صلاحية البقاء الأدبي من كل ناحية.

2) حرمان المسلمين من الوظائف الحكومية صغراها وكبراها، وتجريدهم من أنواع السلطة التي تمنحهم فضل قوة البروز.

3) فتنة الناس والقسوة عليهم وأخذهم بالعنف ليردوهم عن دينهم[103].

وقد نجحت خططهم بشكل كبير، فترى أغلب المسلمين اليوم همهم وظيفة تبرز قيمتهم المجتمعية وأموال تحقق كفايتهم الذاتية، باتت هذه الأساسيات حلمًا لا يصله إلا قلة قليلة والأغلبية الباقية يلهثون شرقًا وغربًا عسى تصادفهم الفرص لنيل ذلك ولا ينجحون، وهذا كان سببًا في تخلي الناس عن حدود الشرع واتباعهم نظمًا ما أنزل الله بها من سلطان يسعون من خلالها لتحقيق مصالحهم.

وإن أكثر ما يدمي القلب اليوم أن ترى العلماء والدعاة يسعون لنشر العلم وأحكام الشرع، والناس يصدون عنهم ويعرضون ولسان حالهم يقول: بماذا سينفعنا الشرع ونحن على هذه الحالة من الجهل والفقر وقلة الحيلة والذل، ونسوا أن البركة كل البركة والعزّ كل العز في

---

(102) أوراق الموساد المفقودة لجاك تيلور: ().

(103) الاستعمار أحقاد وأطماع للشيخ محمد الغزالي: ().

الوقوف عند شريعة الخالق عز وجل التي ما شرعها إلا لتنتظم الحياة وتأخذ مسارًا متوازنًا يتمتع فيه الناس بما سخر لهم من خيرات.
ولكن حتى لا تلتف حبال اليأس على أعناقنا فننصب مشانقنا بأيدينا، علينا أن نذكر بحديث النبي صلى الله عليه وسلم: "لَا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ "[104].
فمهما طالت صولة الباطل سيكون يوم يأذن فيه الله بعلو الحق وارتفاع رايته، فهذه الأمة تمرض وتشيخ ولا تموت وهذا الدين يصاب ويجرح ولكن لا يسقط، ومن ذلك أن الله أعان المسلمين على إخراج عدوهم في أغلب البلاد، حتى وإن كانت السيطرة مستمرة فضرر أخف من ضرر وحال أهون من حال، كما حفظ الله الدين نقيًّا صافيًا بفئة من عباده الصالحين الذين وفقهم هو لذلك، ولو لم يكونوا هم لكان غيرهم، ولو لم يكن أحد فإنه عز وجل قادر على حفظه بغير أسباب فهو مسبب الأسباب.
بعد أن أدرك المستعمر الكافر أن تجهيز جيوشه لمحاربة المسلمين تزيد من شحذ هممهم وتوحيد صفوفهم، نحوا بحربهم إلى أساليب أخرى وجبهات جديدة، ومنها جاءت عاصفة جديدة ما زال خطرها قائمة إلى الساعة، وهي أقوى العواصف في تاريخ الإسلام على الإطلاق، تحاول هذه العاصفة اقتلاع الإسلام من قلوب المسلمين وقد نجحت في تحقيق ذلك إلى حد كبير مع كثير من المسلمين، مما نجد تفاصيله في الصفحات القادمة:

(11)
الغزو الفكري

عاصفة جديدة من العواصف المدمّرة في حياة الإسلام والمسلمين، فبعدما انتهى الغرب إلى عدم جدوى الحروب في القضاء على الأمة المسلمة بدأ مرحلة جديدة من هجومه على الإسلام لكنها هذه المرة حرب فكرية حرب الشبهات والشهوات لتدمير قوى الأمة الداخلية والأخلاقية، وإذا كان الغزو العسكري يأتي للقهر وتحقيق أهداف استعمارية بقوة السلاح، فإنّ الغزو الفكري هو تصفية العقول والأفهام لتكون تابعة للعدو مؤيّدة له في أغراضه مشاركة له في تحقيق أهدافه،

(104) أخرجه البخاري (3641)، ومسلم (1037).

فالغزو الفكري هو: الوسائل غير العسكرية التي اتخذها أعداء الإسلام لإزالة مظاهر الحياة الإسلامية وصرف المسلمين عن التمسك بالإسلام، مما يتعلق بالعقيدة وما يتصل بها من أفكار وتقاليد وأنماط وسلوك.

أو هو نشر أفكار الغرب ومذاهبهم وثقافاتهم وسلوكهم والتأثير بها على المسلمين في عقيدتهم وأخلاقهم وسياستهم وجميع نواحي الحياة.

وعلى هذا فالغزو الفكري: مجموعة الجهود التي اتخذها أعداء الإسلام ضد الأمة الإسلامية بقصد التأثير عليها في جميع الميادين التعليمية، والثقافية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، باستخدام الوسائل والأساليب التي يراها مناسبة من أجل صرف المسلمين عن التمسك بعقيدتهم، وأخلاقهم، وسير سلف الأمة الصالح[105].

إنها الاستراتيجيّة القديمة التي تتبنى على أن الشجرة لا يقطعها إلا فرع منها، والجسد لا يقتله إلا إصابة عضو منه!

لقد "رأى أعداء المسلمين أن الغزو العسكري يثير غضب الشعوب وحقدها وكرهها ومقاومتها، ففكروا في غزو عقول الشعوب وتبعيتها بما يريدون من الثقافات التي تخدم العدو والتي لا تنتبه لها الشعوب إلا بعد فوات الأوان".

على نحو مما قال لويس التاسع قائد الحملة الصليبيّة المندحرة لقومه: "إذا أردتم أن تهزموا المسلمين فلا تقاتلوهم بالسلاح وحده فقد هُزمتم أمامهم في معركة السلاح ولكن حاربوهم في عقيدتهم فهي مكمن القوة فيهم".

ويرى جملة من الباحثين أنّ لويس التاسع، هو من وضع لهم هذه السياسة ولخصها في الأمور التالية:

1- تحويل الحملات الصليبية العسكرية إلى حملات صليبية سلمية تستهدف ذات الغرض، لا فرق بين الحملتين إلا من حيث نوع السلاح الذي يُستخدم في المعركة.

2- تجنيد المبشرين الغربيين في معركة سلمية لمحاربة الإسلام ووقف انتشاره، ثم القضاء عليه معنوياً، واعتبار هؤلاء المبشرين جنوداً للغرب.

3- العمل على استخدام نصارى الشرق في تنفيذ سياسة الغرب.

وقد سار الأوربيون بالفعل في طريق تنفيذ وصية لويس حيث:

1- أعدوا جيوشاً من: المستشرقين والمنصرين الذين قاموا بحركة تشويه للإسلام عقيدة وشريعة وتاريخا، بهدف تشكيك المسلمين فيه.

---

(105) انظر: تحصين المجتمع المسلم ضد الغزو الفكري (ص339) د. حمود بن أحمد بن فرج الرحيلي.

2- قاموا بإنشاء قاعدة نصرانية لهم في لبنان، ويهودية في فلسطين.
3- قاموا بتمزيق وحدة العالم الإسلامي عن طريق إشاعة النعرات العصبية في العالم الإسلامي[106].
هذا هو الأسلوب الجديد في مواجهة الإسلام، وهو أسلوب الغزو الفكري الذي يفوق بعشرات المراحل أسلوب الغزو العسكري، وذلك أنه يمتاز بما يأتي:
1- الخداع: فالعدو من خلال هذا الغزو لا يقف أمامك عياناً بياناً بل هو متخفي يأتيك من وراء حجاب ويداهمك بدون شعور منك، قد يأتيك في صورة مقال جذاب، أو كتاب بغلاف براق، أو برنامج إذاعي أو تلفزيوني، أو فيلم، أو مسلسل، بل إنه قد يأتيك من خلال واحد من أبناء جلدتك ووطنك، بل ودينك أحياناً.
2- الخطورة: الغزو الفكري أخطر بكثير من الغزو العسكري، لأنه عميق التأثير في الشعوب المغزوة، إذ يمتد تأثيره عشرات بل مئات السنين أحياناً، والشعب الذي يُحارب بالغزو الفكري يتصرف بمحض اقتناعه هو كما يريد الغازي.
4- عدم وجود المشقة: فالغزو الفكري سهل وبسيط، وأقل تكلفة من الغزو العسكري الذي يكلف كثيراً من الدماء والطاقات[107].
تولّى كبر الغزو الفكري المستشرقون من نصارى ويهود، وعاونهم في ذلك علمانيون من بني جلدتنا قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس!
ما هي أهداف الغزو الفكري؟ يهدف الغزو الفكري إلى التشكيك في المصادر الإسلاميّة مثل: القرآن الكريم والسنة النبوية وصفحات التاريخ الإسلامي النقيّة، واتهام الصحابة رضوان الله عليهم بتهم شنيعة، وإثارة ما حصل بينهم من خلاف رغبة إشغال الطاقات الإسلاميّة في الجواب عنها.
حين تخرج هذه الأهداف إلى حيز التنفيذ فإن الجماهير المستقبلة لها تنقسم حيالها إلى أقسام:
- فمنهم المصدّق لها، المؤيّد لها، كهؤلاء العلمانيين الذين يشاركونهم في الدوافع والأهداف، وأيضًا يسارع في تصديقها صنف ثالث هم المنهزمون نفسيًّا الذين تحطموا على أعتاب الصنفين الأولين من كثرة الشبهات والصدمات فأسلموا لهم قيادهم وأسلسوا لهم خطامهم يقودونهم إلى حيث شاءوا.

---
(106) احذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام (ص38)، د سعد الدين السيد صالح.
(107) نفس المصدر.

- ومنهم الذين لا يعنيهم شيء من الأمر كلّه، فلا الإسلام وقضاياه ولا الكفر وعدوانه يهمهم في شيء، وهؤلاء هم الذين لا همّ لهم إلا بطونهم وكروشهم، أو عروشهم وقروشهم، قد ألهتهم الدنيا بزينتها وغرهم عن دينهم الغرور.
- ومنهم المترددون المتذبذبون وهؤلاء هم الذين ليس لديهم علم بالشرع الحنيف تفريطًا منهم في طلب العلم بثوابت الشريعة وأصول الدين وتعلم ما يجب عليهم علمه.
- ومنهم المكذّب لها، العارف ببطلانها، المتيقن من تهافتها، لكنّه يرى الأصناف الأولى تهلك فيسارع إلى الرد على الأولين، وإيقاظ الغافلين، وتثبيت الآخرين، فيشغل هو الآخر بغير العمل الرئيس الذي لأجله خلق وأوجد من عبادة الله وعمران الحياة، والسعي لهداية الضالين من أهل الملل الأخرى!

وبهذا تكون الكفّة قد انقلبت علينا وصارت الخسارة إلى صفنا حيث شغلنا بغير هدفنا ومكثنا مكاننا لا نبرحه إلى الأمام، وبالمقابل يتفرّغ عدونا للكيد لنا والدس فينا والوقيعة بيننا، والتدبير لاصطيادنا.

ومن أهداف هؤلاء الغزاة لتحقيق هدفهم الخبيث، على التفصيل، ما يلي:

1) **تشويه عقائد الإسلام وشرائعه وأعلامه ورموزه**، وتشويه العقائد يدلس على المسلمين حقيقة دينهم ويبقيهم في بحث وتفتيش عن وجه الصواب فيها ويثير حولها الشبهات ويكثر الأخذ والردّ، فلا تصفو القلوب ولا تشتد بدينها وقوة يقينها بربها وذلك كلّه مما يوهن عزمها أمام عدوها ويفرق جمعها ويمزق صفها، وكذلك الأمر بالنسبة للشريعة حين يشغل المسلمون ببيان الحكمة من كلّ مسألة فيها والإشارة إلى منافع العمل بها وأضرار إهمالها، فلا يفرغون من ذلك حتى تثار شبه جديدة على ما أصلوه وفصلوه وقعدوه لأن الذي يثير هذه الشبهات هم أعداؤهم وأذنابهم، وأما المسلمون فقد كان كافيهم أن يقال لهم: هذا تشريع ربكم لكم وهو العليم الحكيم وتبيان نبيكم الذي أوتي الكتاب والحكمة، ومثل ذلك بالنسبة لرموز الأمة وأعلامها فإن القصد من وراء التشكيك بهم وإسقاطهم هو التشكيك بصدق الأصول والمصادر التي حملوها إلينا وبلغوها لنا، فإن سقطوا سهل على أولئك الأعداء أن يقولوا: شيء أتانا به أقوام غير عدول فكيف نقبل به؟ فغرضهم من إسقاط الشهود على الشريعة إنما هو إسقاط الشريعة نفسها.

2) **محاربة اللغة العربية الفصيحة**، بهدف إبعاد المسلمين عن لغة الوحي، حتى لا يفهموا القرآن والسنّة، فيصير الناس أعاجم لا يعرفون عن شيئًا من نصوص الكتاب والسنّة إن هم قرأوا فيها، ومن آثار ذلك أيضًا تمزيق وحدة المسلمين وتفريقهم شيعًا وبلدانًا؛ إذ اللغة العربية واحد من أقوى عوامل الوحدة بين المسلمين.

3) **إثارة النعرات القومية والعرقية**، فلكلّ بلدة أصول جاهليّة تعود إليها قبل أن ينعم الله عليهم بإسلام فهؤلاء أفارقة والآخرون آسيويون، وهؤلاء عرب والآخرون أعاجم، وهؤلاء فينيقيون والآخرون فراعنة، وهؤلاء بربر وأولئك أمازيغ، وهكذا حتى يتحزّب كلّ شعب لأصله الجاهلي ويتمسك بنعرة خبيثة ويبتعد الجميع عن روح الإسلام التي جمعت بينهم وألفت بين قلوبهم.

4) **بث الفرقة والمذاهب الهدامة**، فالفرقة تذهب بالقوة وتشيع الضعف وتصم الصف بالهزال وتصيبه بالتدني والذل، وسرعان ما يستجيب المسلمون لدعاوى الفرقة والمذهبيّة، إن في العقيدة والشريعة سواء، فيحدث الشقاق وتنتشر الفرقة ويصير هؤلاء إلى جانب وأولئك إلى الجانب المقابل له، فتجد أشاعرة وأهل حديث ومعتزلة وجهمية، وتجد خوارج وأهل سنة ومرجئة ومعتزلة وشيعة، وتجد شافعية وحنابلة ومالكية وأحناف وظاهرية... إلخ ولا يعيب بعض هذه الفرق التمذهب بمذهب معين، كالمذاهب الفقهية، إنما العيب في تعصب أتباعها وحسبانهم أنهم يحتكرون الحق المطلق!

5) **إغراق الأمة في الشهوات والملذات**، فيشغل المسلمون بالشهوات، شهوات الفروج وشهوات البطون، ويتلهون في الملذات، ويقعون في حبائل التفاهات والمرذولات، وهو ما نشاهده اليوم واضحًا صريحًا، فرفع بسببه التافه وتحدث بسببه السفيه وصار الرعاع بسببه هم القدوة والأسوة وربما صاروا أهل الحل والعقد في جميع شئون المسلمين

6) **بث الشبهات حول كل ما يمت إلى الإسلام بصلة**، بقصد شغل العاملين، وقتل روح المسلمين، وبث الفتنة بين ذوي العقول الضعيفة بالشبه الخطافة

7) **التركيز على جانب المرأة وتحريرها من دينها وحيائها وأخلاقها**، فالمرأة إذا فسدت فسد المجتمع بأسره لأنها هي الأساس الذي يبتنى عليه المجتمع ويتخرج بسببه أفراده، فإن أفسدوها سهل عليهم ذلك العمل كله، إفساد الرجال والشباب وضمان فساد جميع الأجيال التالية.

هذه هي أهداف القوم، ولقد سلكوا في سبيل تحقيق مآربهم تلك كلّ وسيلة، فدسوا في مقررات التعليم ما استطاعوا، وفخخوا منابع المعرفة كالإعلام والصحافة والكتب المنحرفة وصفحات الإنترنت، وغير ذلك من الوسائل.

وقد نشأت أجيال وتربّت على أنّ هذه الشبهات حقائق، فبات الإسلام في نظر أبنائه متهمًا، لأنهم لا يعرفون حقيقته، ولم يحاولوا يومًا التبيّن مما ينسب إليه ويزوّر عليه!

لقد تحرّكت كلّ الرّمال النّاعمة من تحت أقدام المسلمين، فالتشكيك في التاريخ المشرّف الذي هو وسام على صدر كل مسلم جعل الكثيرين يتصورونه بحيرة من الدم والظلم والعار الذي ينبغي أن يتبرأوا منه ويخجلون من نسبته إليهم.

والصحابة الذين هم نجوم الهدى ومصابيح الدجى وأدلة الشرع في كلّ شأن قد بات الكثيرون ينظرون إليهم على أنهم نفر عاديّون تحدث بينهم الأحقاد وتصدر منهم الأطماع ويتداول بينهم السباب والشتائم وتجري بينهم الحروب ويسقط بينهم الأعداد الغفيرة في القتال.

والسنة النبوية مصدر التشريع ووحي الله إلى نبيّه الكريم وبيان متشابه القرآن وتوضيح غامضه وتفصيل مجمله والنور الهادي إلى الصراط المستقيم قد باتت لدى هؤلاء مصدرًا خطرًا يجب ألا يعتمد في تفسير القرآن لأنهم تشككوا في ثبوتها وعدالة نقلتها، ليس قصدهم بعضًا منها بل جميعها، وفي مقدمتها الصحيحين اللذين هما أصح كتابين واللذين تلقتهما الأمة بالقبول!

ووجهت الطعون إلى القرآن هو الآخر!

إلى أين يسير هؤلاء؟ وما هي آخر مراحلهم؟

إنهم فيما تشير جميع الدلائل لا يقفون حتى ينتهوا إلى ما حذّرنا الله تعالى منه في قوله: {وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ} [البقرة، 217]

{وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً}

{ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ}

{وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ}

إنها فتنة عاصفة تلهب القلوب بسياطها كلّ لحظة، ويقع فريستها أعداد غفيرة هي بلا ريب أكثر من قتلى الحروب التي دارت بين الفريقين بالسيوف، ولقد كان لنا في صرعى السيوف عزاء من جهتين:

الأولى: أن أولئك القتلى كانوا شهداء يدخلون الجنة بغير حساب جزاء تقديمهم أنفسهم لله عز وجل فداء لدينه، أما في حالتنا هذه فلا شهادة ولا نجاة من النار، إلا أن تتداركهم رحمة العزيز الغفار.

الثانية: أن أولئك القتلى كانوا يواجهون عدوهم مع إخوانهم فربما قتلوا ثم قتلوا وربما قتلوا ابتداء فأوقع إخوانهم الذين معهم في الجيش أضعافهم أو أمثالهم من صفوف العدو، وأما صرعى الشبهات والغزو الفكري فهم من صفوف المسلمين فحسب!

فأي خسارة فادحة، وأي عاصفة قويّة تلك التي نزلت بالمسلمين!

لو قلنا إنه لم تمرّ على المسلمين في القديم والحديث فتنة هي أعظم من هذه الفتنة العاصفة لما بعدنا عن الحقيقة، فهي والله كذلك.

ومما يزيد الأفق حلكة وشدة أنه لا توجد قوى للمسلمين مكافئة لهذه العاصفة تقوم على ردّها وصدّها، فيأتي القلوب الإياس ويصيبها الإبلاس!

فمتى يقوم للإسلام من يدافع عنه ويحامي عنه؟

ومتى يحمل أهله قضيته؟

ومتى يعود للإسلام سناه الباهر الذي لا تخالطه في أذهان الناس شبهة صادة ولا تشكيكات رادّة، لينطلق إلى الآفاق من جديد يفتح القلوب؟

والجواب: إن ذلك لجدّ قريب، وبيانه في الصفحات القادمة.

ويبقى الإسلام

لو قدّر للإسلام العظيم أن يموت لمات في حصار المشركين لجميع أتباعه في شعب أبي طالب حين ائتمروا عليهم بجمعهم فمنعوا عنهم الطعام والشراب وسائر الضروريات اللازمة لاستمرار الحياة!

طيلة ثلاث سنوات والمؤمنون لا يجدون ما يسدّ رمقهم إلا كلّ حين، حتى أكلوا ورق الشجر من الجوع، فهل قضوا بذلك على الإسلام؟

لو كان عمر الإسلام منتهيًا نتيجة اضطهاد وأذى وقتل وتشريد لانتهى بموقف قريش من المسلمين الأوائل، فقد أذاقوهم العذاب ألوانًا بين قتل وتعذيب وهجر وتهجير، ولم ينج منهم أحد، حتى إنّهم دبّروا لقتل عمر وقتل أبي بكر، ثم دبروا لقتل رسول الله صلى الله عليه وسلّم!

فهل قضي على الإسلام بهذا؟

هل انتهى الإسلام؟

لو أنّ حادثة من الحادثات كانت القاضية على الإسلام لكانت غزوة أحد، تلك التي انتصر فيها المشركون على جيش الإسلام فتضعضعت قوى المسلمين وأشيع أنّ النبي صلى الله عليه وسلّم قتل، ولم يكن بين المشركين وبين قصد المدينة للقضاء على بقيّة المؤمنين فيها وليس فيهم يومئذ إلا القليل مع النساء والذريّة ممن لا يقومون بدفع ولا يقوون على الردّ، فما الذي منعهم وصرفهم وجيش الإسلام في أحد بين قتيل وجريح؟

ولو أنهم فعلوا ذلك لقضوا على الإسلام، فهل فعلوا؟

وهل انتهى الإسلام؟

وهل قضي بذلك على الإسلام؟

فحين لم تفلح سياسة الحصار والتجويع، ولم تنجح طريقة التنكيل والتعذيب، فهل أفلحت تلك الغزوة العسكريّة الحاسمة؟

لو مات الإسلام وانتهى أجله ليوم من الأيام تألبت عليه فيه جميع القوى واجتمع عليه شتى الأعداء لمات يوم الأحزاب، حين كانت كلّ إنجازات الإسلام في الدين والدولة تقبع تحت رحمة الجيوش العربيّة الغازية، تسيطر على المدينة من كل مكان قد أحاطت بها، فلو تمكنوا من الاستمرار وقتًا أطول مما انتظروه لمات المسلمون كلهم جوعًا وعطشًا، ولو تمكنوا من الدخول إليهم لقضوا عليهم ضربًا وطعنًا ورميًا، ولم يكن بالمسلمين لدفعهم من قوة في البدء، كما لم يكن لهم حيلة للخلاص منهم في الانتهاء، فهل استطاع أهل مكة حين فشلوا في أحد بقوتهم وحدها، أن يحققوا ومعهم العرب اليوم جميعًا ما عجزوا عنه بالأمس؟

ومن الذي أنجى الإسلام والنبي والذين ءامنوا من كيدهم وأحزابهم؟
لو كان الإسلام منتهيًا زمنه منقضيًا أجله منحسرًا امتداده لفقد أحد أو موته لحدث ذلك كله لموت رسول الله صلى الله عليه وسلم؟
فهل مات الإسلام وانقضى بموت رسول الله ؟
لو قضت حركة على الإسلام من داخله هدفت إلى زعزعته والتشكيك في مصداقيته أو لشرائح من أتباعه قرروا أن يدعوه ويتخلوا عنه وأن يغادروا إلى فسطاط أعدائه ويكثروا من إثارة الشبهات على أركانه وأصوله وثوابته، لكان ذلك لحركة الردة التي حدثت فور وفاة النبي صلى الله عليه وسلّم حين اجتمع على القلة المؤمنة الكثرة المرتدة والمشككة إلى الحد الذي خشي فيه الصحابة أن تغزى المدينة أو أن تتخطف زوجات النبي منها، وكانت الجزيرة كلها تغلي على نار متأججة ولا ترى لإطفاء نارها من سبيل إلا القضاء على البقية القابعة في المدينة تتمسك بتوحيدها لله وتؤكد على صدق اتباعها لرسول الله..
واستمرت هذه الأوضاع قرابة عام لم تهدأ إلا في آخره!
فهل انتهى الإسلام في هذه المرحلة؟
وهل توقف مدّه؟
وهل انهزم أمام أعدائه فلم يقم مرة ثانية؟
ولو أن باب حماية أو نظام أمان سقط وبقي الإسلام عاريًا تتناوشه الفتن من كلّ جانب وتأتيه العواصف من كلّ اتجاه فكان يؤثر عليه بانقضاء أو يقضي عليه بانتهاء لكان ذلك الباب عمر رضي الله عنه فبوفاته انكسر باب أتت من خلاله الفتن التي تموج كموج البحر لا تنتهي ولا تنقضي، فهل قضي على الإسلام بموت عمر أو أزالته العواصف التي تلته عن وجه الحياة ولم يسمع به بعدها الأحياء؟
لقد وقعت الفتنة بين الصحابة وجرت بينهم حروب في الجمل وصفين وكربلاء وغيرها فكانت أشد أثرًا على الإسلام من كلّ حروبه الماضية وكانت أيامها أشدّ على أبنائه وآلم من حروب أحد والخندق والردة، ولو خيّروا بين ألف حرب يخوضونها معًا ضدّ عدوّ متربّص أو جهة كافرة وبين هذه الحروب لاختاروا الأولى دون تردد، لكن لم يكن ذلك لأحد حتى يقع، فحدثت الفتنة وجرت الحروب وكان ما كان مما يعاني المسلمون آثاره إلى يومنا هذا؟
فهل نعلم أنّ الإسلام انتهى وانزوى أو رحل عن الحياة؟
هل نذكر وحشية التتار، أم نذكر أمواج الصليبيين المتتابعة، إن هؤلاء وهؤلاء لا يقلّون خطرًا على الإسلام من الفرس والروم، وقد انتصر المسلمون على الفرس وهزموا الروم، وبقيت راية الإسلام عالية

خفّاقة، لكن خطرًا أعتى وأكبر من كل أولئك قد حاق بالإسلام يومًا لأنه كان من داخله، ولأنه كان في الدين، ولأنه كان في أصول الدين ومصادره الأصليّة، ولأنه كان في أعظم هذه المصادر، ولأنه كان معولًا كافيًا لو تمّت لمن أرادوا الضربة به ضربتهم لقضوا على الإسلام إلى غير رجعة ولو قدر له البقاء لبقي كما بقيت اليهوديّة والنصرانية إلى اليوم رغم موتهما منذ قرون وقرون، دينًا لا روح له، وادعاء لا دليل عليه، وانتسابًا لا أصل له ولا صلة، تلك هي فتنة القول بخلق القرآن وتعميم مذهب الاعتزال في أمة الإسلام.

فقد تولّت الدولة كبره، وتتابع عليه الخلفاء، ثلاثة خلفاء متواترين متتالين!

وعلماء الأمة - إلا من رحم الله - قد أجابوا لما يطلب منه طمعًا ورغبًا.

وآخرون قد أجابوا لما رهبوا وخافوا وفزعوا.

وغيرهم ثقات يقعون تحت الضغطة فلا يستطيعون تحملا فيصدرون وقد أجابوا.

وغيرهم يثبتون فيموتون ويصلبون.

وغيرهم يثبتون فيحملون وينكل بهم فلا يقدرون فيسقطون صرعى تحت آلام النفس والبدن.

وآخرون وآخرون وآخرون

فهل تمّ للمغرضين ما أرادوا ؟

وهل كان لهم ما طلبوا؟

هل انتهى الإسلام الحقيقي الناصع الصافي النقي؟

الجواب: لا، بل بقي الإسلام وسيبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، بموعود ربنا سبحانه، في آياته وأحاديث نبيّه.

قال الله عز وجل: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ}.

"تبشرنا هذه الآية الكريمة بأن المستقبل للإسلام بسيطرته وظهوره وحكمه على الأديان كلها, وقد يظن بعض الناس أن ذلك قد تحقق في عهده - صلى الله عليه وآله وسلم - وعهد الخلفاء الراشدين والملوك الصالحين, وليس كذلك, فالذي تحقق إنما هو جزء من هذا الوعد الصادق, كما أشار إلى ذلك النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بقوله: «لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى, فقالت عائشة: يا رسول الله إن كنت لأظن حين أنزل الله: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ

بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُون} أن ذلك تامّاً, قال: إنه سيكون من ذلك ما شاء الله... »[108] الحديث.

وقد وردت أحاديث أخرى توضح مبلغ ظهور الإسلام ومدى انتشاره, بحيث لا يدع مجالا للشك في أن المستقبل للإسلام بإذن الله وتوفيقه.

وهأنا أسوق ما تيسر من هذه الأحاديث عسى أن تكون سببًا لشحذ همم العاملين للإسلام, وحجة على اليائسين المتواكلين:

- «إن الله زوى (أي جمع وضم) لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها». الحديث

- «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل عزّاً يعز الله به الإسلام وذلّاً يذل به الكفر».

- عن أبي قبيل قال: كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاصي وسئل أي المدينتين تفتح أولا القسطنطينية أو رومية؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق، قال: فأخرج منه كتابا قال: فقال عبد الله: بينما نحن حول رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - نكتب، إذ سئل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -: أي المدينتين تفتح أولًا أقسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -: " مدينة هرقل تفتح أولا. يعني قسطنطينية ".

- «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكاً عاضًّا فيكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكا جبريّاً فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة. ثم سكت»[109].

بل في الحديث الإخبار بأن الخير باق – وبكثرة - في هذه الأمة إلى قيام الساعة، فقد قال صلى الله عليه وسلم: "مثل أمتي كمثل الغيث لا يدري أوله خير أو آخره"[110]، قال العلماء: معناه أنه يكون في آخر الأمة من يقارب أولهم في الفضل وإن لم يكن منهم حتى يشتبه على الناظر أيهما أفضل[111].

---

[108] أخرجه مسلم (7483).

[109] انظر تخريج هذه الأحاديث في السلسلة الصحيحة (1/ 1/ 31 - 34).

[110] أخرجه أحمد (12349)، والترمذي (2869)، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط: حديث قوي بطرقه وشواهده, وهذا إسناد حسن.

[111] مجموع الفتاوى، (18/ 306).

إنّ الإسلام باقٍ لا جدال في هذا ولا محال، والواقع خير شاهد، فبعد مروره بكلّ هذه العواصف ما يزال باقيًا، لكن ما سبب هذا البقاء؟ وما سرّ حياته الطويلة تلك إلى يوم الناس هذا؟

هل هو أتباعه، أو قوّده، أو المؤلّفون في إظهار محاسنه وإبراز مزاياه؟ ما هو السبب، لعل الإجابة التي يقع بها الاقتناع هي الإجابة المستقاة من التجارب السابقة التي ذكرناها واحدة واحدة، فلنعد إليها ولنمرّ عليها بهذا السؤال ننظر عم يسفر حالها؟

ففي الحصار لم يكن المسلمون يملكون لأنفسهم حولا ولا قوة، وكان مخلّصهم من محنتهم تلك نملات صغيرات سلّطها الله تعالى على الصحيفة الظالمة فأكلتها، لقد كان الفرج إذن من عند الله.

وفي اشتداد الخناق على المسلمين في مكة قبل الهجرة والتضييق عليهم حد الموت، ومحاولة المشركين قتل النبي صلى الله عليه وسلّم، من الذي أنجاه منهم، أفكانت له يوم الغار حيلة؟ اللهم لا، لقد كان الفرج يومئذ من عند الله.

وفي يوم أحد، وفي الخندق، وفي الردة، وفي الفتنة، وفي المحنة، وفي أمواج التتار، وفي حروب الصليبيين، وفي فتن الاستخراب، من الذي حمى الإسلام وحفظه؟ ألـيس الله؟ والجواب بملء الفم والروح: بلى، هو الله وحده.

والذي يمسك إيمان الناس اليوم عن الذهاب أمام أمواج الشهوات والشبهات هو الله وحده، إن الإسلام دين الله وهو الذي يحميه ويحافظ عليه ويجنّبه المهالك ويسله من بين العواصف المدمّرة سلًّا.

فلا ينبغي أن يكون اهتمام المسلم اليوم منصبًّا حول هذا السؤال المعلوم جوابه بداهة: هل الإسلام سيزول أو ينمحي أمام هذه الهجمات المتتابعة عليه؟ أو بمعنى أشمل: هل نخاف على الإسلام؟ لا ينبغي أن يكون هذا شاغل المسلم، فمثل هذا السؤال معلوم أن الجواب عليه قطعًا هو بالنفي، فجوابه: لا.

لا، لن يزول الإسلام ولن يفنى.

لا، لن نخاف على الإسلام، فله رب يحفظه ويحميه، وسيبقى ويعلو ويعز وينتصر ويرتفع لواؤه فوق الدنيا بأسرها.

لكن الذي ينبغي أن يشغل المسلم ويؤرق باله شيء آخر، هو هل سينتصر الإسلام به أم بغيره؟ هل سيكون جندي الإسلام في مواقف ومعاركه وينصره ويعزه أم سيخذله حين يعتمد عليه ويدعوه ويناديه؟ هذا ما ينبغي أن يشغل بال المسلم ويعمل على استحضاره دئمًا وعلى إعداد العدة له ليكون موجودًا دائمًا.

وهنا يبدر السؤال: كيف ننصر الإسلام؟ ما الذي أعمله حتى أكون في خدمة ديني ناصرًا له، ماذا عسانا أن نقدّم لدين الله تعالى؟

كيف ننصر الإسلام؟

هذا هو السؤال الجدير بالطرح في نهاية هذا المطاف الجميل الذي طوفناه فزرعنا الثقة في أنفسنا أن الإسلام باق وأنه منتصر، فالاطمئنان على حاضر الإسلام ومستقبله متحصّل بكل طريق، شاء من شاء وأبى من أبى.

فلم يبق إلا أن نبحث في أنفسنا: هل نحن من أسباب هذا النصر أم لا؟ هل نحن مستعدون للعمل لهذا الدين أم نحن قوم نتحدث عن نصرة الدين ولسنا على استعداد للمشاركة في صناعة هذه النصرة؟ فإن اخترنا أن نكون من أسبابه وعدته كان السؤال الجدير بالطرح هو: كيف ننصر الإسلام؟ والسعي في إيجاد الجواب عليه هو واجب كل مسلم ومسلمة، ولن نغرق في البحث ولن نطيل في الحديث ولن نوسع الكلام ونفرّعه، بل نجيب على قدر السؤال، ومباشرة، ولتحقيق الجواب عن هذا السؤال شطران، الشطر الأول: أن نذكر الأسباب التي يجب علينا الأخذ بها، والشطر الثاني أن نذكر العوائق التي يجب علينا تجنبها، وتوضيح هذا في التالي:

أسباب تحقيق النصر:

فأما أسباب تحقيق النصر التي يجب على كل فرد مسلم العمل بها فتتلخص في هذه النقاط، وهي أسباب في متناول الفرد والمجموعن ولا يعتذر عنها معتذر لتعلقها بدولة او حكومةن بل يعمل المسلم منها ما اقدره الله عليه والله رقيب على كل نفس وقائم عليها بما كسبت، وأما ما يتعلق منها بالحكومات والدول فليس المرء المسلم بمطالب به بعدما أقام ما يستطيعه هو في خاصة نفسه وأهله وسعى للدعوة إلى ما لا يستطيعه هو بالخير؛ أمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر وهداية لمن لا يعلم إلى ما يعلمه، بهدي صحيح، وقول حسن، وموعظة حكيمة، وتذكير رفيق لين، وهذه هي أسباب تحقيق النصر في نقاط:

1- إقامة توحيد الله عز وجل وشرعه في الأرض والحكم به والتحاكم إليه وترك ما سوى ذلك من القوانين الوضعية والأحكام البشرية {وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذي من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون} [النور: 55].

2- إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والمحافظة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر {الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور} [الحج: 41].
3- الصدق مع الله عز وجل والتوكل عليه والالتجاء إليه والاعتصام به والخوف منه وحده {الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل} [آل عمران: 173].
4- التسلح بسلاح الإيمان والتوبة إلى الله والرجوع إليه ويقظة المسلمين مما هم فيه من الغفلة والضياع {وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون} [النور: 31].
5- توحيد الصفوف وإصلاح الآخرين ورأب الصدع وتأليف القلوب وجمع الكلمة حتى لا ينخر في سفينة الأمة من يغرقها "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا"[112].
6- التربية الجادة للأمة بإحياء السلوك الإسلامي فيها والقضاء على السيئ منها {وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله} [الأنعام: 153].
7- إحياء روح الجهاد في سبيل الله وإعداد النفوس لذلك {انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله} [التوبة: 41].
8- تقوية الصلة بالله تعالى والتوجه إليه في السراء والضراء والمحنة والمنحة {ففروا إلى الله إني لكم منه نذير وبشير} [الذاريات: 50].
9- تحقيق مفهوم الولاء لله عز وجل ولمن يحبهم سبحانه وتعالى من الأنبياء والصالحين {ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون} [المائدة: 56].
10- البراءة من كل ما يُعبد من دون الله تعالى والكفر به ومعاداته {إنني براء مما تشركون * إلا الذي فطرني} [الزخرف: 2627].
11- التضحية بالغالي والنفيس والإنفاق في سبيل الله مع تخليص النفس من الشح وحب الدنيا والركون إليها {ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون} [التغابن: 16].
12- أن تعد الدول الإسلاميّة لإرهاب العدو؛ عدة جسمية وعقلية وعسكرية {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة} [الأنفال: 60].
13- طلب الشهادة في سبيل الله، والتطلع إليها بشتى الوسائل مع الصدق في النية "من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه"[113].
14- الإلحاح على الله عز وجل بالدعاء بتثبيت قلوب المؤمنين على هذا الدين والانتصار على الكافرين " وقال ربكم ادعوني استجب لكم} [غافر: 60][114].

---

(112) أخرجه البخاري (481).
(113) أخرجه مسلم (1909).
(114) نقلت هذه النقاط عن مقال: "كيف ننصر الله؟" بقلم، سلمان بن يحيى المالكي، منشور بموقع صيد الفوائد.

هذه هي أسباب تحقيق النصر باختصار، فواجب المرء المسلم والمرأة المسلمة أن يأخذوا أنفسهم بها، وأن يعملوا بما استطاعوا منها قدر استطاعتهم، هذا في جانب المأمورات، أما في جانب المنهيّات فيجب الإقلاع عنها وتجنبها تمامًا.

ثانيًا: عوائق في طريق النصر:

وكما أن للنصر أسبابًا فله عوائق تمنع تحققه ولو وجدت باقي الأسباب، فعلى الفرد المسلم ومن ورائه المجتمع ثم الدولة، الانتباه إلى هذه العوائق والعمل على تجنبها والابتعاد عنها، حتى لا تؤخر النصر وتعيقه، وهذه العوائق ملخصة موجزة في نقاط:

1- شيوع الشرك والبدع بأنواعها وانتشار الفواحش والمنكرات ومبارزة الله بالمعاصي بشكل ينذر بالعقوبة والخطر {وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا والآخرة ومالهم في الأرض من ولي ولا نصير} [التوبة: 74].

2- ظهور الفسق والفساد وطغيان الترف في البر والبحر وعلى مستوى الرجل والمرأة والمجتمع والدول {ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون} [الروم: 41].

3- شهوة الدنيا والركون إليها والتكالب على حطامها واللهث الشديد وراءها "إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم"[115]

4- تحقير النفس والرضا بالدون والحط من قدرها وهمَّتها {ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين} [آل عمران: 139].

5- عدم التربية الجادة على طلب العلم الشرعي من مصادره الصحيحة وأصوله العميقة "يا ايها الذين ءامنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا....}.

6- فقد الهوية والتبعية المذمومة والإعجاب بنُظم الغرب وتقاليده {إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم} [الرعد: 11].

7- الاستجداء بالكافرين وموالاتهم وطلب النصرة منهم {يا أيها الذين امنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين} [المائدة: 51].

8- غض الطرف عن موالاة المؤمنين في حال محنتهم وحاجتهم للنصرة "ما من امرئ يخذل امرأ مسلمًا في موضع تنتهك فيه حرمته، وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله"[116].

9- الفرقة المشينة في صفوف الأمة مع وجود التشاحن والتباغض والاختلاف {ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم} [الأنفال: 46].

---

(115) أخرجه أحمد (4987) وأبو داود (3462) وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

(116) أخرجه أحمد (16415)، وأبو داود (4884)، وصححه أبو نعيم، والسيوطي، وحسّنه الهيثمي، وضعّفه الألباني، انظر الضعيفة (6871).

10- عدم إدراك بعض المسلمين لطبيعة المعركة مع اليهود والنصارى وأنها معركة عقيدة ودين وولاء وبراء {ذلك بأن الله مولى الذين أمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم} [محمد: 11].

11- الانخداع ببعض الاستراتيجيات الغربية والمساهمة في تنفيذها كالسلام والتطبيع والتعايش السلمي والوحدة الإنسانية والنظام العالمي الجديد {وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم} [محمد: 38][117].

هذه هي الأسباب وهذه هي المعوقات.

فإن أخذنا بالأسباب، واجتنبنا المعوّقات رجونا أن نصل إلى نصر الله الذي وعدنا، وإن لم نصله حمدنا الله أنّا أدّينا ما استطعنا مما علينا ويكتب الله لنا الأجر بنياتنا.

هذا آخر ما دوّناه في هذا الكتاب، وما اردنا منه، ولعلّ الرّسالة التي أردناها به وشرحناها فيه تكون قد وصلت إلى القارئ الكريم ببلوغه إلى هذا الموضع منه، فيطمئن قلبًا ويهدأ نفسًا ويستقر روحًا، ثم ينطلق إلى ميدان العمل ينافس على تقديم ما يستطيع لنصرة دينه بعلم وحكمة ورحمة وإحسان.

والله الموفق والمستعان

المؤلفان

الفهرس

1) **يوم الحصار.**
- المحنة.
- أسبابها.
- آثارها.
- إذن الله بفك الحصار وتدابر قدره في ذلك.
- الآثار المترتبة عليه.

2) **يوم الهجرة.**
- تضييق المشركين على الإسلام وأهله في مكة.
- أهميّة الهجرة.
- سعي المشركين لوأد الهجرة.
- نجاح الهجرة بتدابير الله تعالى.
- الآثار المترتبة على نجاحها.

3) **يوم أحد.**
- مرارة الهزيمة.
- اشتداد الأزمة.

(117) نقلت هذه النقاط عن مقال: "كيف ننصر الله؟" بقلم، سلمان بن يحيى المالكي، منشور بموقع صيد الفوائد.

- انجلاء المحنة.

4) **يوم الخندق.**
- عظم محنة الإسلام باجتماع الأحزاب وغزوهم المدينة.
- انجلاء المحنة.
- آثاره.

5) **يوم الرّدة.**
- محنة الردة.
- اجلاؤها.
- الآثار المترتبة عليه.

6) **يوم الفتنة.**
- عاصفة الفتنة.
- انجلاؤها.
- الآثار المترتبة عليه.

7) **يوم المحنة.**
- عاصفة المحنة.
- انجلاؤها.
- الآثار المترتبة عليها.

8) **يوم التتار.**
- بلاء الله عباده بالتتار.
- إذن الله بانجلاء محنة التتار.
- الآثار المترتبة على ذلك.

9) **أيام الحملات الصليبيّة.**
- عاصفة الحملات الصليبيّة وشدة وطأتها على العالم الإسلامي

10) **الاستعمار.**
- بالغ أضراره على العالم الإسلامي.
- انجلاء المحنة.
- آثاره.

11) **الغزو الفكري.**
- محنة الغزو الفكري.
- أضراره.
- سبل مواجهته وكسر طوق الحصار على الإسلام.
- **خاتمة:**
- **ويبقى الإسلام.**
- المستقبل للإسلام
- وجوب نصرة الإسلام.
- مفاتح نصرة الإسلام.

- كيف ننصر الإسلام؟

المحتويات

مقدمة 4
يوم الحصار 6
شدائد البداية 6
محاولة وأد الإسلام في مكة ومنة الله تعالى بالهجرة. 13
يوم أحد 19
اجتماع الأحزاب للقضاء على الإسلام في المدينة ومنّة الله تعالى بالنصر 30
الرّدّة 39
الفتنة بين الصحابة 44
المحنة 51
التتار 57
الحروب الصليبية 73
الاستخراب 84
الغزو الفكري 90
ويبقى الإسلام 97
كيف ننصر الإسلام؟ 102
الفهرس 105